الفصل الأول

القـــرآن

- لفظ القرآن ومعناه.
- القرآن ولغة العرب.
- دليل نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة.
- أقوال العلماء في المقصود بالأحرف السبعة.
- ما كل كلمة في القرآن تقرأ على سبع لغات.
- ابن حجر يجمع بين القولين.
- رأي ابن قتيبة بالأحرف السبعة.
- رأي أبي الفضل الرازي في الأحرف السبعة.
- كيفية إنزال القرآن الكريم.
- الحكمة من نزول القرآن منجماً.
- معرفة أسباب النزول.
- ليس كل الآيات لها سبب نزول.
- السبيل إلى معرفة سبب النزول.

obeikandl.com

الباب الأول

القرآن الكريم

لمحة عامّة عن معنى الأحرف السبعة، وظاهرة الوحي، وعلوم القرآن ونشأتها،والتفسير وتطوّره.

obeikandl.com

obeikandl.com

القرآن

● لفظ القرآن ومعناه:

القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ثم نقل من معناه اللغوي إلى معناه الاصطلاحي الدال على الكلام المعجز المنزل على النبيﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقال آخرون: القرآن اسم غير مشتق من شيء وهو اسم خاص بكلام الله مثل التوراة والإنجيل، وهو اسم غير مهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أُخِذَ من قرأت لكان كل ما أخذ قرآناً، ورُوِي هذا الرأي عن الشافعي، وقال البيهقي: «كان الشافعي يهمز «قرأت»، ولا يهمز القرآن. ويقول: «هو اسم لكتاب الله غير مهموز، قال الواحدي: قول الشافعي يعني أنه اسم لكتاب الله، يعني أنه اسم غير مشتق»[2].

وقال آخرون: «أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممتُه إليه فسمِّي بذلك القرآن السور والآيات والحروف فيه، ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة قران، قال: وإلى هذا المعنى ذهب الأشعري»[3].

وقال القرطبي: «القرآن بغير همز مأخوذ من القرائن لأن الآيات منه يصدقُ بعضها بعضاً ويشابه بعضها بعضاً، فهي حينئذٍ قرائن»[4].

---

(1) سورة القيامة، الآيتان: (17، 18).

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (1/ 278)، ط، دار الجيل (1988) ت محمد أبو الفضل إبراهيم.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

obeikandl.com

قال الزجّاج: وهذا القول سهو، والصحيح: أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها؛ وهذا ما أشار إليه الفارسي[1] في الحلبيات.

وتوسّع علماء التفسير في توضيح الأسماء التي سُمّيَ بها القرآن الكريم. قال الفارسي في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[2]: أي جمعه في قلبك حفظاً، وعلى لسانك تلاوةً، وفي سمعك فهماً وعلماً[3].

وأما الكلام فمشتق من التأثير، يُقال: كلّمَهُ إذا أثّرَ فيه بالجرح، فَسُمّيَ الكلامُ كلاماً، لأنه يؤثر في ذهن السامع فائدة لم تكن عندَه[4].

وللقرآن أسماء كثيرة سُمِيَ بها وهذه المسمَّيات تكشف عن الوظائف والآثار الحسنة لهذا الكتاب الكريم.

أما «**النور**» فلأنه يُدرَك به غوامض الحلال والحرام... وأما تسميتُه «**هُدى**» فلأن فيه دلالةٌ بينة إلى الحق، وتفريقاً بينهُ وبين الباطل، وأما تسميتُه «**ذكراً**» فلما فيه من المواعظ والتحذير وأخبار الأمم الماضية، وهو مصدر ذكرتُ ذكراً...

وأما تسميته «**تبياناً**»: فلأنه بُيِّنَ فيه أنواع الحق، وكشف أدلتَهُ. وأما تسميته «**إبلاغاً**» فلأنه لم يصل إليهم حالَ أخبار النبيﷺ وإبلاغه إليهم إلا به. وأما تسميته «**مبيناً**» فلأنه أبان وفرّق بين الحق والباطل، وأما تسميتُه «**بشيراً ونذيراً**» فلأنه بشر بالجنة وأنذر من النار.

وأما تسميتُه «**عزيزاً**» أي يعجز ويعز على من يروم أن يأتي بمثله، فيتعذّر ذلك عليه، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[5]. والقديم لا يكون له مثل، إنما المراد أن يأتوا بمثل هذا الإبلاغ والإخبار والقراءة بالوضع البديع، وقيل المراد بالعزيز نفي المهانة عن قارئه إذا عمل به[6].

وأما تسميته «**فرقاناً**» فلأنه فرّق بين الحق والباطل، والمسلم والكافر، والمؤمن

---

(1) الفارسي: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، توفي سنة (377هـ) ببغداد، والحلبيات أحد كتبه التي أسماها الحلبيات، إنباه الرواة: (1/ 273).
(2) سورة القيامة، الآية: (17).
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (1/ 278).
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (1/ 279).
(5) سورة الإسراء، الآية: (88).
(6) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (1/ 279).

والمنافق، وبه سمي عمر بن الخطاب الفاروق.

وأما تسميته «**مثاني**» فلأن فيه بيان قصص الكتب الماضية، فيكون البيان ثانياً للأول الذي تقدّمه فيبين الأول للثاني، وقيل: سُميَ «**مثاني**» لتكرار الحكم والقصص والمواعظ... وأما تسميتُه «**وحياً**» ومعناهُ تعريف الشيء خفيةً، سواءً كان بالكلام كالأنبياء والملائكة، أو بإلهام كالنحل، أو إشارة كالنمل؛ فهو مشتق من الوحي والعجلة، لأن فيه إلهاماً بسرعة وخفية، وأما تسميتُه «**حكيماً**» فلأنّ آياته أحكمت بذكر الحلال والحرام، فأحكمت عن الإتيان بمثلها، ومن حكمته أنّ علامته مَن علِمَهُ وعمل به ارتدع عن الفواحش[1]... وقد ورد قولُه تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[2]. أي: «نظمت نظماً رصيفاً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف»[3].

«وألفاظ هذا الكتاب بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة وهذا أيضاً مشعر بالقوة والإحكام»[4].

وأما تسمية القرآن «**مصدقاً**» فإنه صدق الأنبياء الماضين أو كتبهم قبل أن تغير أو تُبدّل، وأما تسميته «**مهيمناً**» فلأنه الشاهد للكتب المتقدمة بأنها من عند الله[5].

وأما تسميتُه «**بلاغاً**» فلأنه كان في الإعلام والإبلاغ وأداء الرسالة، وأما تسميتُه «**شفاءً**» فلأنه من آمن به كان له شفاءً من سقم الكفر، ومن علِمهُ وعمل به كان له شفاء من سقم الجهل[6].

وأما تسميته «**رحمةً**» فإن من فهمهُ وعقلَهُ كان رحمةً له[7].

وأما تسميتُه «**قصصاً**» فلأن فيه قصص الأمم الماضين وأخبارهم. وأما تسميتُه «**مجيداً**» والمجيد الشريف، فمن شرفِهِ أنه حفظ عن التغير والتبديل والزيادة والنقصان، وجعله الله معجزاً في نفسه عن أن يؤتى بمثله.

وأما تسميتُه «**تنزيلاً**» فلأنه مصدر نزّلته؛ لأنه منزّلٌ من عند الله على لسان جبريل،

---

(1) الزركشي، البرهان، (1/ 280).
(2) سورة هود، الآية: (1).
(3) الفخر الرازي، التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط (2)، (1997)، (6/ 312).
(4) الرازي، التفسير الكبير، (6/ 313).
(5) الزركشي، البرهان، (1/ 280).
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه.

لأن الله تعالى أسمع جبريل كلامه وفهمَه إياه كما شاء من غير وصف ولا كيفية نزل به على نبيِّه فأداه هو كما فهمه وعَلِمَهُ[1].

وأما تسميتُه «**بصائر**» فلأنه مشتق من البصر والبصيرة، . . . وأما تسميتُه «**ذكرى**» فلأنه ذكّرَ المؤمنين ما فطرهم الله عليه من التوحيد[2].

والحق: أن ما نقلناه عن الزركشي يؤكد أنَّ هذه صفات للكتاب الكريم وليست أسماء له، وهذه الصفات تؤكد وظيفة القرآن في الحياة الدنيا فهو هادٍ وهو مذكر، وهو مبين، وهو محكم. . . الخ.

وبعض العلماء أوصل تسميات القرآن الكريم «إلى نيف وتسعين اسماً، ويبدو أنهم لم يفرقوا بين الأسماء والصفات، واعتبروا كلّ لفظة وردت في إطار الدلالة على القرآن من أسماء القرآن، وهذا أمر مبالغ فيه، ولو اقتصروا على الأسماء التي استعملها القرآن وأراد بها تسمية القرآن لكان أولى»[3].

• القرآن ولغة العرب:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[4]. وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[5].

قال الشاطبي: «إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية. . . وإن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية عند جماعة من الأصوليين، أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب وجاء القرآن وفق ذلك فوقع فيه المعرب الذي ليس من أصل كلامها»[6].

والملخص النافع في ذلك: «أنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي على الجملة فطَلب فَهمهِ إنما يكون من هذا الطريق خاصة»[7].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[8]. «مما

(1) الزركشي، البرهان، (1/ 281).
(2) المصدر نفسه.
(3) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية. ط (1995)، عن وزارة الأوقاف المغربية، ص (25).
(4) سورة يوسف، الآية: (2).
(5) سورة الشعراء، الآية: (195).
(6) الشاطبي، الموافقات، (2/ 64) دار المعرفة، بيروت، ت د. عبد الله دراز.
(7) المصدر نفسه.
(8) سورة فصلت، الآية: (44).

يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنّه أعجمي، ولا بلسان العجم، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة»[1].

ويوضح الشاطبي مسألة ورود بعض ألفاظ العجم في القرآن أو عدم ورود مثل هذه الألفاظ، فيقول: «إذا كانت العرب قد تكلمت به، وجرى في خطابها، وفهمت معناه، فإن العرب إذا تكلّمت به صار من كلامها»[2].

ونقل عبد الله دراز عن الآمدي: «اختلفوا في اشتمال القرآن على كلمة غير عربية فأثبته ابن عباس وعكرمة، ونفاه آخرون، ومحلّهُ أسماء الأجناس لا الأعلام»[3].

وهذا الخلاف حول وجود بعض الألفاظ العجمية في القرآن الكريم «لا ينبغي عليه حكم شرعي، ولا يستفاد منه مسألةٌ فقهية، وإنما يمكن أن توضع فيها مسألة كلامية ينبني عليها اعتقاد. وقد كفى الله مؤونة البحث فيها بما استقر عليه كلام أهل العربية في الأسماء الأعجمية»[4].

ولعل في كلام القاسم بن سلام أبي عبيد: الذي صدّق القولين ـ أي القائلين بوجود بعض الألفاظ الأعجمية، والآخر الذي قال بعدم وجود ألفاظ أعجمية ـ: «والصواب عندي مذهبٌ فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، إلّا أنها سقطت إلى العرب فعرّبتها بألسنتها، وحوّلتها عن ألفاظ العَجَم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال أعجمية فصادق»[5].

وهناك من يقول: إنَّ القرآن نزل بلغة قريش وهذا يجب توضيحه: أي أن قريش كانت تصطفي من كلام العرب أوضحه وأفصحه: «وحكي عن أبي الأسود الدؤلي أنه نزل بلسان الكعبين: كعب بن لؤي جد قريش وكعب بن عمرو جد خزاعة.

وقال أبو عبيد في كتابه: «فضائل القرآن» عن ابن عباس ﷺ: نزل بلغة الكعبين: كعب قريش وكعب خزاعة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لأن الدار واحدة.

وفضل «الفراء» لغة قريش على سائر لغات العرب، لأنهم كانوا يسمعون كلام العرب فيختارون من كل لغة أحسنها فصفا كلامهم»[6].

---

(1) الشاطبي ، الموافقات، (2/ 64).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، والاقتباس من كلام عبد الله دراز محقق الكتاب.
(4) المصدر نفسه.
(5) عن محمد فاروق النبهان في المقدمة في الدراسات القرآنية، ص (26).
(6) المصدر نفسه.

• دليل نزول القرآن الكريم على الأحرف السبعة:

أدلة نزول القرآن على حروف سبعة:

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرأني جبريلُ على حرفٍ فلم أزل أستزيدُه حتى انتهى إلى سبعة أحرف**»[1].

وأخرج البخاري بإسناده: أن المِسوَر بن مَخْرَمة وعبد الرحمٰن بن عبدٍ القاريَّ حدّثاه: أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ فكِدْتُ أساورُه في الصلاة، فتصبّرْتُ حتى سلّم، فلببتُه بردائه فقلتُ: من أقرأك هذه السورة التي سمعتُكَ تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقْتُ به أقودُهُ إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: «**أرْسِلْهُ، اقرأ يا هشام**». فقرأ عليه القراءة التي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أُنزِلتْ**»، ثم قال: «**اقرأ يا عمر**»، فقرأتُ القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أُنزِلت، إنّ هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه**»[2].

وساق ابن حجر في الفتح حديثاً رواه الطبري من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده قال: «قرأ رجل فغير عليه عمر، فاختصما عند النبي ﷺ فقال الرجل: ألم تقرئني يا رسول الله؟ قال: «**بلى**»، قال: فوقع في صدر عمر شيءٌ عرَفَه النبي ﷺ في وجهه، قال: فضرب عمر في صدره، وقال: «**أبعد شيطاناً**»، قالها ثلاثاً. ثم قال: «**يا عمر، القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمةً عذاباً أو عذاباً رحمة**»[3].

• أقوال العلماء في المقصود بالأحرف السبعة:

تكاثرت الآراء في «المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة بلغها أبو حاتم بن حبان إلى خمسة وثلاثين قولاً، وقال المنذري: أكثرها غير مختار»[4].

1 ـ قال ابن حجر في شرحه لقوله ﷺ: «**فاقرؤوا ما تيسرَ منه**» أي: من المنزَل[5].

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3219).
(2) أخرجه البخاري، في (الحديث: 4992).
(3) ابن حجر، الفتح، ط دار السلام، الرياض، (1997)، (9/ 34).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.

وقال ابن حجر: «وفيه إشارة إلى الحكمة في التعدد المذكور، وأنه لتيسر على القارىء، وهذا يقوي قول من قال: المراد بالأحرف تأدية المعنى باللفظ المرادف ولو كان من لغة واحدة، لأن لغة هشام بلسان قريش وكذلك عمر، ومع ذلك فقد اختلفت قراءتهما. نبّه على ذلك ابن عبد البر، ونقل عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة[1].

2 ـ وذهب آخرون ـ منهم أبو عبيد ـ إلى أن المراد بالأحرف السبعة اختلاف اللغات، وهو اختيار ابن عطية، وتعقب بأن لغات العرب أكثر من سبعة، وأجيب أن المرادَ أفصحُها، فجاء عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «نزل القرآن على سبع لغات: منها خمس بلغة العجز من هوازن، قال: والعجز: سعد بن بكر وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية وثقيف وهؤلاء كلهم من هوازن، ويُقال لهم عُليا هوازن، ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عُليا هوازن، وسفلى تميم، يعني بني دارم[2].

«وهناك رواية أخرى عن ابن عباس تقول: نزل القرآن بلغة الكعبين: كعب قريش وكعب خزاعة، وقيل: وكيف ذاك؟ قال: لأن الدار واحدة. يعني أن خزاعة كانوا جيران قريش فسهلت عليهم لغتهم»[3].

3 ـ وقال أبو حاتم السجستاني: نزل بلغة قريش وهذيل وتيم الرباب، والأزد وربيعة وهوازن، وسعد بن بكر»[4]» يريد أبو حاتم أن الأحرف السبعة تعبير عن لغة هذه القبائل، ... بيد أن ابن قتيبة أنكر على أبي حاتم قوله، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[5] . فعلى هذا فتكون اللغات السبع في بطون قريش، وبذلك جزمَ أبو علي الأهوازي.

• ما كل كلمة في القرآن تقرأ على سبع لغات:

قال أبو عبيد: «ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقةٌ فيه، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم. قال: وبعض اللغات أسعد بها من بعض وأكثر نصيباً، وقيل: نزل بلغة مضر

(1) ابن حجر، الفتح، (9/ 34)
(2) المصدر نفسه، (9/ 34، 35).
(3) المصدر نفسه (9/ 35).
(4) المصدر نفسه.
(5) سورة إبراهيم، الآية: (4).

خاصة لقول عمر: نزل القرآن بلغة مضر، وعين بعضهم فيما حكاه ابن عبد البر السبع من مضر أنهم هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب، وأسد بن خزيمة، وقريش، فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات، ونقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: أُنزِل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيحَ للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلَّف أحدٌ منهم الانتقال من لغته إلى لغةٍ أخرى للمشقة، ولِما كان فيهم من الحمية، ولطلب تسهيل فهم المراد، كل ذلك مع اتفاق المعنى. وعلى هذا يتنَزَّلُ اختلافهم في القراءة كما تقدم، وتصويب رسول اللهﷺ كلاً منهم.

قلتُ: وتتمة ذلك أن يُقال: إنّ الإباحةَ المذكورة لم تقع بالتشهي، أي أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها في لغته، بل المراعى في ذلك السماع من النبيﷺ، ويشير إلى ذلك قول كلٍّ من عمر وهشام رضي الله عنهما في حديث الباب[1]. وقد قال ابن عبد البر موضحاً المقولة التي تقول: ليس المراد بالأحرف السبعة أن كل لفظة منه تقرأ على سبعة أوجه. قال ابن عبد البر: «هذا مجمع عليه، بل هو غير ممكن، بل لا يوجد في القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه إلا الشيء القليل مثل: «عبد الطاغوت»[2].

وهناك بعض النقول التي تشير أن القرآن نزل بلغة قريش، ثم سهل على الأمة أن تقرأه بغير لسان قريش «وذلك بعد أن كثر دخول العرب في الإسلام، فقد ثبت أنّ ورود التخفيف بذلك كان بعد الهجرة وفقاً لحديث أبيّ بن كعب الذي أخرجه مسلم، قال أبيّ: «كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة، دخلنا جميعاً على رسول اللهﷺ فقلتُ: إن هذا قرأ قراءة أنكرتُها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول اللهﷺ فقرأا، فحسّن النبيﷺ شأنَهما قال: فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنتُ في الجاهلية، فلما رأى رسول اللهﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأنما أنظرُ إلى الله فرقاً، فقال لي: «**يا أبيُّ، أُرْسِلَ إليّ أن اقرإ القرآن على حرف، فرددتُ إليه أن هوّن على أمتي**»، وفي رواية له: «**إن أمتي لا تطيق ذلك**»، ولأبي داود من وجه آخر عن أبيّ: «**فقال لي الملك الذي معي: قل على حرفين، حتى بلغت سبعة أحرفٍ**»[3].

---

(1) سقنا الحديث برقم (4992)، وكلام ابن حجر مأخوذ من الفتح، (9/ 35).

(2) ابن حجر، الفتح (9/ 36).

(3) انظر الفتح، (9/ 31)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 1901)، وأخرجه أبو داود في (الحديث: 1478) مختصراً.

وأخرج البخاري بإسناده عن ابن عباسٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرأني جبريل على حرفٍ فراجعتُه فلم أزل أستزيدُه ويزيدُني حتى انتهى إلى سبعة أحرف**»[1].

وعلى هذا فهذا الفريق وجّه القول: «أُنزِل على سبعة أحرف»[2] أي: أُنزِل موسعاً على القارىء أن يقرأه على سبعة أوجه، أي يقرأ بأي حرف أراد منها على البدل من صاحبه كأنه قال: أُنزِلَ على هذا الشرط أو على هذه التوسعة وذلك لتسهيل قراءته، إذ لو أخذوا بأن يقرؤوه على حرف واحد لشق عليهم..»[3].

ونقل ابن حجر عن ابن قتيبة في أول تفسير المشكل» له:

كان من تيسير الله أن أمر نبيَّهُ أن يقرأ كلّ قوم بلغتهم: فالهذلي يقرأ: عتى حين يريد: «حتى حين»، والأسدي يقرأ «تعلمون» بكسر أوله، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز، قال: ولو أراد كلُّ فريقٍ أن يزول عن لغته وما جرى عليه لسانُه طفلاً وناشئاً وكهلاً لشق عليه غاية المشقة، فيسّر عليهم بذلك بمنه، ولو كان المراد أن كل كلمة تقرأ على سبعة أوجه لقال مثلاً: أنزل سبعة أحرف، وإنما المراد أن يأتي في الكلمة وجه أو وجهان أو ثلاثة أو أكثر إلى سبعة. وقال ابن عبد البر: أنكر أكثر أهل العلم أن يكون معنى الأحرف: اللغات، لما تقدم من اختلاف هشام وعمر ولغتهما واحدة»[4]. ومن خلال الحديث الذي سقناه سابقاً. إذ أن هشاماً وعمر يتحدثان بلغة واحدة ولو أن الأحرف أريد بها اللغة لما جز لعمر وهشام أن يختلفا.

ويرى ابن عبد البر أن المراد بالأحرف السبعة: سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة، نحو: أقبل وتعال، وهلم، ثم ساق أحاديث، ولعل حديث الترمذي أنﷺ قال: «**يا جبريل إني بعثتُ إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط**»[5] وهناك حديث أخرجه أحمد في المسند عن أبي بكرة: «**كلها كافٍ كقولك هلم وتعال ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب**»[6] وهذه الأحاديث قال عنها ابن حجر أنها تقوي قول القائلين: «إن المعنيّ

---

(1) أخرجه البخاري، في (الحديث: 4991) كتاب: فضائل القرآن.

(2) أخرجه البخاري (الحديث: 4992)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2943)، وساقه ابن حجر بالفتح، (9/ 32).

(3) ابن حجر، الفتح (9/ 36).

(4) المصدر نفسه.

(5) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2944) وانفرد به.

(6) أخرجه أحمد في المسند، وساقه ابن حجر في الفتح (9/ 32).

بالأحرف اللغات أو القراءات»[1]. ورأينا ما نقله ابن حجر عن ابن عبد البر أنه استدل بهذه الأحاديث على أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة، نحو: أقبل وتعال وهلم. قال ابن حجر: ثم ساق (أي القائل ابن عبد البر) الأحاديث الماضية ومنها هذين الحديثين اللذين أخرجهما الترمذي في السنن وأحمد في «المسند».

• ابن حجر يجمع بين القولين:

قال ابن حجر: «ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى، مع انحصار ذلك في سبع لغات».

غير أن ابن حجر يرى أن (لاختلاف) القولين فائدة هامة «وهي ما نبّه عليه أبو عمر الداني أن الأحرف السبعة ليست متفرقةً في القرآن كلها ولا موجودة فيه في ختمة واحدة، فإذا قرأ القارىء برواية واحدة فإنما قرأ ببعض الأحرف السبعة لا بكلّها، وهذا إنما يتأتّى على القول بأن المراد بالأحرف اللغات، وأما قول من يقول بالقول الآخر فيتأتى ذلك في ختمة واحدة بلا ريب، بل يمكن على ذلك القول أن تحصل الأوجه السبعة في بعض القرآن»[2].

• رأي ابن قتيبة في الأحرف السبعة:

حمل ابن قتيبة الأحرف على الوجوه التي يقع بها التغاير في سبعة أشياء:

الأول: ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورتُه مثل: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[3] بنصب الراء ورفعها.

الثاني: ما يتغير بتغير الفعل مثل ﴿بَعُدَ بين أسفارنا﴾. و﴿بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[4] بصيغة الطلب والفعل الماضي.

الثالث: ما يتغير بنقط بعض الحروف المهملة مثل ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[5] بالراء والزاي.

الرابع: ما يتغير بإبدال حرف قريب من مخرج الآخر مثل ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[6]. في قراءة علي: «وطلع منضود».

---

(1) ابن حجر، الفتح، (9/ 36).
(2) المصدر نفسه.
(3) سورة البقرة، الآية: (282).
(4) سورة سبأ، الآية: (19).
(5) سورة البقرة، الآية: (259).
(6) سورة الواقعة، الآية: (29).

الخامس: ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[1].

السادس: ما يتغير بزيادة أو نقصان كما في التفسير عن ابن مسعود وأبي الدرداء: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[2] هذا في النقصان وأما في الزيادة فكما تقدم في تفسير ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾[3] في حديث ابن عباس «وأنذر عشيرتك الأقربين، ورهطك منهم المخلصين»[4].

السابع: ما يتغير بإبدال كلمة بكلمة ترادفها مثل: «العهن المنفوش».

في قراءة ابن مسعود وسعيد بن جبير «كالصوف المنفوش»[5].

قال ابن حجر: «وهذا وجه حسن» (أي كلام ابن قتيبة) لكن استبعده قاسم بن ثابت في «الدلائل» لكون الرخصة في القراءات إنما وقعت وأكثرهم يومئذٍ لا يكتب ولا يعرف الرسم، وإنما كانوا يعرفون الحروف بمخارجها»[6].

• رأي أبي الفضل الرازي في الأحرف السبعة:

قال أبو الفضل الرازي: «الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع أو تذكير أو تأنيث.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ ومضارع وأمر.

الثالث: وجوه الإعراب.

الرابع: النقص والزيادة.

الخامس: التقديم والتأخير.

السادس: الإبدال.

السابع: اختلاف اللغات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم، والإدغام والإظهار، ونحو ذلك»[7]. قلتُ: (أي ابن حجر): وقد أخذ أي: (الرازي) كلام ابن قتيبة ونقحه.

---

(1) سورة قّ، الآية: (19).
(2) سورة الليل، الآيات: (1 ـ 3).
(3) سورة المسد، الآية: (1).
(4) ابن حجر، الفتح، (9/ 37).
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه.

• آراء أخرى:

إن السبعة الأحرف سبعة أصناف من الكلام، واحتجوا بحديث ابن مسعود عن النبي ﷺ. قال: «**كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا كلٌ من عند ربنا**» قال ابن حجر: «وإن هذا الحديث أخرجه أبو عبيد وغيرُه، قال ابن عبد البر: «هذا حديث لا يثبت» لأنه من رواية أبي سلمة ابن عبد الرحمٰن عن ابن مسعود ولم يلقَ ابنَ مسعود، وقد ردّ قوم من أهل النظر منهم أبو جعفر أحمد بن أبي عمران. قلتُ: وأطنب الطبري في مقدمة تفسيره في الرد على من قال به، وحاصله أنه يستحيل أن يجتمع في الحرف الواحد هذه الأوجه السبعة»[1]. إلا أن ابن حبان صحح حديث «نزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف...». قال ابن حجر: «في تصحيح ابن حبان نظر لانقطاعه بين أبي سلمة وابن مسعود.

«وقد أخرج الحديث البيهقي من وجه آخر عن الزهري عن أبي سلمة مرسلاً، وقال هذا مرسل جيد[2]، لكن البيهقي وجه دلالة الحديث باتجاه آخر عندما قال: «إن صح (أي الحديث) فمعنى قوله في هذا الحديث سبعة أحرف أي: سبعة أوجه كما فُسِرت في الحديث»[3].

• رأي الإمام الطبري في الأحرف السبعة:

لا علاقة بين القراءات السبع والأحرف السبعة، إنما اقتصار الصحابة على هذه القراءات جاء على سبيل التيسير والترخيص، قال الطبري: «وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار كمن اقتصر ممَّا خُيِّر فيه على خصلة واحدة، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة لم يكن على سبيل الإيجاب بل على سبيل الرخصة. قلتُ: (أي ابن حجر): ويدل عليه قول ﷺ في حديث الباب «**فاقرؤوا ما تيسر منه**» وقد قرر الطبري ذلك تقريراً أطنب فيه ووهّى من قال بخلافه، ووافقه على ذلك جماعة منهم أبو العباس بن عمار في «شرح الهداية» وقال: أصح ما عليه الحذاق أن الذي يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون في قراءتها لا كلّها، وضابطه ما رافق رسم المصحف فأما ما خالفه مثل «إن تبتغوا

(1) ابن حجر، الفتح، (9/ 37).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، (9/ 39).

فضلاً من ربكم في مواسم الحج» ومثل «إذا جاء فتح الله والنصر» فهو من تلك القراءات التي تُرِكَت ـ إن صحَّ سندُها ـ في إثبات كونها قرآناً، ولا سيما والكثير مما يحتمل أن يكون من التأويل الذي قُرِن إلى التنزيل فصار يُظَنُّ منه[1].

• الخلاصة في مسألة القراءات السبع والأحرف السبعة:

على الراجح الغالب أن القراءات السبع غير الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وكلمة القراءات السبع هي التي أوجدت ذلك اللبس في المصطلحات والقراءات ليس منحصرة بسبع قراءات فهناك أكثر من ذلك[2].

وقال أبو شامة: «ظن قوم أنَّ القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة»[3].

«غير أن ابن مجاهد[4] شيخ قراء عصره في بغداد... حاول أن يضبط القراءات الكثيرة التي انتشرت في البلاد الإسلامية، وكان بعضُها ليس موثَّقاً فحاول أن يجمع القراءات وأن يستخرجَ منها ما كان ثابتاً عن طريق الرواية المتواترة بنقل الثقات من القرَّاء، فاعتمد سبع قراءات ووثَّقها، وثَبَتَ لديه أن قرَّاءَها عُرفوا بالثقة والضبط والأمانة؛ وعُرِفت هذه القراءات بالقراءات السبع. وتحديد القراءات بسبع قراءات جاءت على غير قصد، ومن دون إرادة، وكان يمكن أن يكون أكثر من ذلك أو أقل، وأدى هذا العدد إلى التباس كبير لدى كثير من الناس بين الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، والقراءات السبع التي اعتمدها ابن مجاهد في القرن الثالث واختارها من القراءات الكثيرة التي شاعت في عصره»[5].

• مكي بن أبي طالب القيسي يجزم أن الأحرف السبعة غير القراءات السبع:

قال مكي بن أبي طالب: «هذه القراءات التي يُقرأ بها اليوم، وصحّت رواياتها عن الأئمة جزءٌ من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن...» ثم قال: «وأما من ظن أن قراءة

---

(1) ابن حجر، الفتح، (9/ 39).

(2) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (265).

(3) ابن حجر، الفتح (9/ 39).

(4) ابن مجاهد: أحمد بن موسى بن العباس أبو بكر البغدادي، عُرِف بابن مجاهد المقرىء، ولد سنة (245هـ) وتوفي في (323هـ) من تصانيفه: الحجة في القراءات السبعة، القراءة الصغيرة، القراءة الكبيرة وكتاب الشواذ في القراء... الخ».
(إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ص (٥٩) وعُدّ هذا من مكملات كشف الظنون. وأعطي رقم الجزء الخامس).

(5) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (265).

هؤلاء القرّاء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث «**نزل القرآن على سبعة أحرف**». فقد غلط غلطاً عظيماً...» قال: «ويلزم من هذا أنَّ من خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم ووافق خط المصحف أن لا يكون قرآناً، وهذا غلطٌ عظيم، فإن الذين صنَّفوا القراءات من الأئمة المتقدمين، كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري وإسماعيل بن إسحاق والقاضي قد ذكروا أضعاف هؤلاء... وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع، واستمروا على ذلك.

فلما كان على رأس الثلاث مئة أثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب قال: والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القرّاء فيهم من هو أجلُّ منهم قدراً، ومثلهم أكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيراً جداً، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف ـ على ما يسهل حفظُه، وتنضبط القراءةُ به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة، والاتفاق على الأخذ عنه فأفردوا من كل مصر إماماً واحداً»[1].

وقال أبو طالب القيسي: «وإذا كان المصحف قد كتب على لغة قريش على حرف واحد ليزول الاختلاف بين المسلمين في القرآن، ولم يُنقّط ولم يشكّلْ فاحتمل التأويل لذلك.

وإذا كان المصحف بلا خلاف كُتِبَ على حرفٍ واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وعلى لغة واحدة ـ أي لهجة واحدة ـ والقراءة التي يُقرأ بها، ولا يُخرج شيءٌ منها عن خط المصحف، فليست هي إذاً السبعة الأحرف التي نزل بها القرآن كلها، ولو كانت هي السبعة كلها، وهي موافقة للمصحف، لكان المصحف قد كُتِبَ على سبع قراءات، ولكان عثمان قد أبقى على الاختلاف الذي كرهَهُ. وإنما جمع الناس على المصحف ليزول الاختلاف، فصَحّ من ذلك أن الذي يقرأ به الأئمة، وكل ما صحت روايتُه مما يوافق خط المصحف، إنما هو كلُّه حرف من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووافق لفظُها على اختلافه خط المصحف، وجازت القراءة بذلك إذ هو غير خارج عن خط المصاحف التي وجه بها عثمان إلى الأمصار، وجمعهم على ذلك وسقط العمل بما يخالف خط المصحف من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن بالإجماع على خط المصحف»[2].

---

(1) ابن حجر، الفتح، (9/ 40). وانظر الإتقان للسيوطي، (1/ 224).

(2) مكي بن طالب القيسي، ص (31، 32) مع تصرف قليل غير مخل بالمعنى الذي أراده المؤلف.

«وصفوة القول: إن الخلاف قائم بين العلماء في تفسير المقصود بالأحرف السبعة، والأقوال والآراء التي سقناها كلها محتملة وممكنة. «ويبدو أن المتأخرين حاولوا تقريب الأمر ورجحوا أن يكون المراد بتعدد الأحرف تيسير الأداء القرآني وتيسير التلاوة على العرب بحيث تتمكن القبائل العربية المختلفة من القراءة باللغة التي تستطيع النطق بها، من حيث التفخيم والإمالة والإظهار والإدغام، والمهم في ذلك كلّهُ التيسير على الأمة بحيث لا يُكلّف المسلم بما لا يُطيق بشرط ألا يؤدي ذلك إلى تغيير في المعاني، فالأداء اللفظي تحكمه استعدادات موروثة أو قابليات فطرية، ولا يؤثر ذلك في سلامة النّص القرآني، ولا في المعاني المستنبطة منه، ويؤكد هذا المعنى ما رواه الترمذي عن أبي بن كعب أنه لقي الرسولﷺ جبريل فقال: «**يا جبريل إني بعثت إلى أمةٍ أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط**» فقال يا محمد: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[1].

• كيفية إنزال القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾[3].

أما كيفية نزول القرآن الكريم، فالأقوال فيه ثلاثة:

أحدها: أنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين على حسب الاختلاف في مدة إقامته بمكة بعد النبوة.

والقول الثاني: أنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلةٍ قدر من عشرين سنة، وقيل في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة، وقيل: في خمسٍ وعشرين ليلة قدر من خمسٍ وعشرين سنة، في كل ليلةٍ ما يُقَدّرُ الله سبحانه إنزاله في كل السَّنة ثم يُنزَل بعد ذلك منجماً في جميع السَّنة على رسول اللهﷺ.

والقول الثالث: أنه ابتُدِىءَ إنزالُهُ في ليْلَةِ القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات.

والقول الأول أشهر وأصح وإليه ذهب الأكثرون، ويؤيدُه ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: «أُنزِلَ القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدْر ثم نزل بعد

(1) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (29، 30).
(2) سورة البقرة، الآية: (185).
(3) سورة القدر، الآية: (1).

ذلك في عشرين سنة، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين»[1].

• الحكمة من نزول القرآن منجماً:

قد يتساءل الناس، وحقاً وقع السؤال من المشركين ساعة نزول القرآن على رسول الله ﷺ فقالوا: وهلّا نزل جملةً كسائر الكتب؟

فقال الله تعالى رداً على سؤالهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أنزلناه مفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2] أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه؛ ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز، فحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة؛ ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام»[3].

والحق أنّ الله تعالى قادر على تنزيل القرآن جملة واحدة، وقادر على تثبيت النبي ﷺ على هذه الحال وكل حال. «لكن ليس كل ممكن لازم الوقوع»[4] هذا عدا عن القول أنّ نزول القرآن منجماً كان لمواكبة الدعوة الإسلامية والتحديات التي تواجهها، والأسئلة والإشكالات التي كان يواجهها النبي ﷺ، إذ كان القرآن ينزل مسدِّداً، وموضحاً، وموجهاً ومثبتاً؛ والآيات الكريمة أوضحت المقاصد من نزوله مفرّقاً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[5]، وقال أيضاً: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[6].

كذلك فإن «في آيات القرآن أجوبة عن أسئلة؛ فهو سببٌ من أسباب تفرق النزول، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلّا فيما أُنزِل مفرّقاً، وقال ابن فورك[7]: «قيل أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب ـ هو موسى ـ وأُنزِل القرآن مفرّقاً لأنه أُنزِل على نبي أمي، وقيل مما ينزل لأجله جملة واحدة أن منه الناسخ والمنسوخ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (1/ 228).
(2) سورة الفرقان، الآية: (32).
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (1/ 231).
(4) المصدر نفسه.
(5) سورة الشعراء، الآيات: (192 ـ 195).
(6) سورة النحل، الآية: (102).
(7) ابن فورك: أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك الأديب المتكلم، الأصولي. ت (406هـ) انظر أنباء الرواة (3/ 110).

ومنه ما هو جواب لمن يسأل عن أمور ومنه ما هو إنكار لما كان»[1].

وفقاً لما سبق يمكن تلخيص أسباب نزول القرآن مفرّقاً على النحو التالي:

1 ـ تثبيت فؤاد النبي ﷺ.

2 ـ تيسير الحفظ والفهم.

3 ـ مواكبة الحوادث والتدرج في التشريع.

• معرفة أسباب النزول:

لقد ارتبط علم التفسير بعلم أسباب النزول إلى درجة كبيرة، وأُلِّفَتْ كُتُبٌ كثيرة، ودراسات عديدة في موضوع أسباب النزول، ومن أبرزها ما كتبه علي بن المديني شيخ البخاري، وما كتبه الواحدي، وابن حجر العسقلاني، وما ألفه السيوطي في الموضوع «لباب النقول في أسباب النزول» وعلم أسباب النزول يبحث «عن أسباب نزول آية سورة، ووقتها ومكانها وغير ذلك فهو فرع من فروع التفسير»[2].

وأما الفوائد التي يحصلها المُفسِر من معرفته أسباب النزول يمكن حصرها بما يلي:

أولاً: «معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ولا سبيل إلى ذلك على وجه الدقة إلا عن طريق معرفة السبب الذي أدّى إلى نزول الحكم.

ثانياً: «تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب»[3]. وأن اللفظ «قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عُرِفَ السبب قُصِرَ التخصيص على ما عداه»[4].

ثالثاً: ومن فوائده فهم معاني القرآن واستنباط الأحكام»[5]. إذ أن الوقوف على السبب يُعِينُ على نحو جليٍّ واضح على فهم المراد من النص، قال الواحدي:

«لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وقالوا: «العلم بالسبب يورث العلم بالمسبَب»[6].

فمن هذا يظهر أهمية علم أسباب النزول للمفسر لأنه لا يمكن للمفسر أن يُفسِر على نحو صحيح أو أن يستنبط حكماً صحيحاً، أو يكتشف الحكمة من تشريع الحكم دون أن

---

(1) الزركشي، البرهان، (1/ 231).

(2) خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، بيروت، دار النفائس، ط (3)، (1994)، ص (99).

(3) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (34).

(4) خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، ص (99).

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

يتضح له سبب نزول الآية، ومعرفة الأسباب المساعدة على ربط النص بالواقع.

«ولو أخذنا مطلق المعاني الواردة من بعض الآيات لتغيرت بعض الأحكام، ولكن معرفة السبب الذي أدّى إلى نزول الآية يوجِّه الآية لكي تكون كجواب عن سؤال، وإذا عُرِف السؤال كان الجواب واضحاً وخاصاً بالسؤال ولا يتعداه إلى غيره»[1] وإذا أردنا أن نستدل بمثالٍ يوضح أهمية معرفة أسباب النزول في فهم النص وإزالة الإشكال لظهر لنا على نحو بيّنٍ فهماً صحيحاً دون علم بأسباب ورود النص، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[2].

«ففي هذهِ الآيةِ لو ترك مدلول اللفظ على إطلاقه لأفاد بجواز الصلاة إلى أية جهة كانت في السفر والحضر، وهو أمر مخالف لما وقع الإجماع عليه، ويتضح المعنى المراد إذا عُرِفَ أن هذه الآية نزلت عندما صلى النبيﷺ على راحلته من مكة إلى المدينة»[3].

«ثم ليس للمفسر من غنى عن معرفة أسباب النزول الذي هو فرع من فروع علم التفسير والذي فيه بيان مجملٍ، وإيضاحُ خفيٍّ، وموجز. ومنه ما يكون وحدَهُ تفسيراً ففي الموطأ عن هشام بن عروة بن الزبير أنه قال: «قلتُ لعائشة أمّ المؤمنين وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[4]. فما على الرجل شيءٌ، ألا يطوف بهما؟ قالت: إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكان يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول اللهﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ الآية[5].

ويمكن أن نلخص أسباب النزول التي صحت أسانيدها في خمسة أقسام:

الأول: «قسم هو المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منه على علمه؛ فلا بد للمفسر من البحث عنه، وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[6]. ومنه ما اقتضاه حالٌ خاص نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟

(1) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (35).
(2) سورة البقرة، الآية: (115).
(3) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (35).
(4) سورة البقرة، الآية: (158).
(5) خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، ص (66) والحديث بمعناه أخرجه البخاري في (الحديث: 4495) و(الحديث: 4861)، وأخرجه مسلم (الحديث: 3070)، وأخرجه الترمذي (الحديث: 2965)، وأخرجه النسائي (الحديث: 2967).
(6) سورة المجادلة، الآية: (1).

رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

الثاني: «قسم هو حوادث تسببت عليها تشريعات أحكام، وصور تلك الحوادث لا تبيِّنُ مجملاً، ولا تخالفُ مدلولَ الآية بوجه تخصيص أو تعميم، أو تقييد، ولكنها إذا ذكرت أمثالها وجدت مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها، مثل حديث عويمر العجلاني الذي نزلت فيه آية اللعان، ومثل حديث كعب بن عجرة التي نزلت فيه آية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ . . .﴾[2] الآية. فقد قال كعب: هي لي خاصة ولكم عامة[3]، وهذا القسم لا يفيد البحث فيه إلا زيادة في فهم معنى الآية وتمثيلها لحكمها، ولا يخشى توهم تخصيص الحكم بتلك الحادثة، إذ قد اتفق العلماء، أو كادوا. على أن سبب النزول في مثل هذا لا يخصص، واتفقوا على أن أصل التشريع أن لا يكون خاصاً[4].

الثالث: قسم هو حوادث تكثر أمثالها ولا تختص بشخص واحد، فتنزل الآية لإعلانها، وبيان أحكامها، فكثيراً ما تجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت في كذا وكذا وهم يريدون أن من الأحوال التي تشير إليها تلك الآية تلك الحالة الخاصة، فكأنهم يريدون التمثيل، ففي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين صَبْرٍ**[5] **يقتطعُ بها مال امرىءٍ لقي الله وهو عليه غضبان**» فأنزل الله تصديق ذلك[6].

ومثله قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[7] دخل الأشعث ابن قيس فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمٰن؟ قالوا: كذا وكذا، قال: فيّ أُنزلَتْ، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي. . . إلخ. فابن مسعود جعل الآية عامة! لأنها جعلها تصديقاً للحديث العام، والأشعث بن قيس ظنها خاصة به، إذ قال فيّ أنزلت، بصيغة الحصر. وهذا القسم قد أكثر من ذكره أهل القصص وبعض المفسرين، مع أن القاعدة عند الأصوليين في ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم لا فائدة في ذكره على أن ذكره قد يوهم

---

(1) سورة البقرة، الآية: (104).
(2) سورة البقرة، الآية: (196).
(3) الحديث بطوله أخرجه البخاري (الحديث: 4517).
(4) خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، ص (100).
(5) صَبر: هنا الصبر الحبس أي من حلف يميناً كاذبة يُحبَس عليها. وانظر خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، ص (100).
(6) أخرجه البخاري (الحديث: 4549).
(7) سورة آل عمران، الآية: (77).

القاصرين قصد الآية على تلك الحادثة، لعدم ظهور العموم من ألفاظ تلك الآيات[1].

الخامس: قسم يبين مجملات ويدفع متشابهات، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]. فإذا ظنَ أحد أن «من» هنا لشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفراً، ثم إذا علم أن سبب النزول هم النصارى، علم أن «من» موصولة وعلم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بمحمدﷺ، وكذلك حديث عبد الله بن مسعود، قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[3] شقّ ذلك على أصحاب رسول اللهﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ ظنوا أن الظلم هو المعصية، فقال رسول اللهﷺ: إنه ليس بذلك ألا تسمع قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4].

• ما كل الآيات لها سبب نزول:

عندما نقول بضرورة معرفة المفسر لأسباب النزول، فهذا لا يعني البتة أنَّ لكل آية في الكتاب الكريم أسبابَ نزول، ولا بد لكل آية من حادثة نزلت عليها أو بسببها، أو أنها نزلت جواباً على سؤال... لأن القرآن كتاب بيان وهداية فقد يتنزل لسبب واقع فيكشف عن ملابساته ويبين أحكامه. بيدَ أن هناك آيات تنزلت مقررة لأحكام جديدة أو موضحة لقضايا «وليست مرتبطة بأي سبب وغايتها تشريع أحكام، وبيان معالم العقيدة الإسلامية، وإقرار مبادىء الإسلام، ومثل هذه الآيات لا تحتاج إلى بيان سبب للنزول وهي كثيرة، ولم يتعرض لها علماء التفسير إلَّا في إطار تفسير معانيها المستفادة كما تفهم من الدلالة القرآنية»[5].

• السبيل إلى معرفة سبب النزول:

«ويعرف سبب النزول عن طريق النقل الصحيح ولا مجال للاجتهاد في هذا الموطن، والصحابة هم المؤهلون لمعرفة أسباب النزول، فإذا ورد سبب النزول عن صحابي فيعتد به لأنه لا يعقل أن يجتهد الصحابي فيه أو يورده من غير سماع أو مشاهدة»[6].

---

(1) خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، ص (101).
(2) سورة المائدة، الآية: (144).
(3) سورة الأنعام، الآية: (82).
(4) سورة لقمان، الآية: (13). وانظر خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده، ص (101، 102) والحديث أخرجه البخاري في (الحديث: 4776).
(5) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (36).
(6) المصدر نفسه.

ومن باب تقريب موضوع ضرورة معرفة أسباب النزول فإنا نقول:

إن دراساتنا عن الشعر أو قصيدة من الشعر لا يستقيم تمام الاستقامة إلّا إذا عرفنا جو القصيدة والظروف التي نظمها الشاعر خلالها، فإنَّ هذا يظهر لنا أنَّ معرفة قصة الآية القرآنية والأسباب الموحية أو الداعية لنزولها تعين عوناً كبيراً على فهم النص فهماً دقيقاً، وتسدد بحثه، وتهديه إلى فهم المقصود وإدراكه تماماً.

«ونحن من القرآن أيضاً إزاء شيء فوق اللغة وقواعدها وآدابها، فإن خلال التعبير في القرآن وإيحاءات المفردات في آياته، وألوان التصوير في قصصه ولوحاته لترتبط أوثق الارتباط بالوقائع الحية والأحداث النواطق، والمشاهد الشواخص، كان أبطالُها ما انفكوا على مسرح الحياة يغدون ويروحون فأنى للشروح اللغوية الجامدة، والاصطلاحات البلاغية الجافة أن تستطلع في الوقائع يقينَ أخبارها، أو تستبطن من الأحداث خفيَّ أسرارها، وهي أعيا من أن ترجع في الآذان أصداءها الحلوة العِذاب.

ونحن من القرآن آخر الأمر ـ أمام شيء فوق التاريخ نفسه، فإنْ وقفْنا على سبب النزول التاريخي لم نكن قد تقصيْنا كلَّ شيء... وكأي في التاريخ من فجوات ينبغي أن تملأ، وثغرات ينبغي أن تُسد! أمام أسباب النزول ـ من وجهة النظر الدينية فليس لنا فيها إلّا أن نستوحي الواقع لا صورته، والإنسان لا شبيهه، والحق لا صداه، فهل من عجب إذ حرَّم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن جهل أسباب النزول»[1] ـ وأظن الواحدي[2] غير مبالغ حين قال: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها».

ويؤكد الشاطبي في الموافقات في أصول الشريعة في إيضاح المزايا المحصَّلة عن معرفة أسباب النزول فيقول:

معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن. والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يُعرفُ به إعجاز نظم القرآن فضلاً على معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مدارُه على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس المخاطب، أو المخاطب أو المخاطَب، أو الجميع إذا الكلام الواحد يختلف فهمُه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك كالاستفهام: لفظه واحد ويدخلُه أخرى من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكالأمر يدخلُهُ معنى الإباحة والتهديد والتعجيز

(1) انظر د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط، (1982)، ص (129، 130).

(2) الواحدي: علي بن أحمد، ويكنى أبا الحسين نحوي، مفسر ت (427هـ). إنباء الرواة (1/ 19).

وأشباهها.

ولا يدل على معناها المراد إلا الأمورُ الخارجة وعمدتها مقتضيات الأصول، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات بعض القرائن الدالة، فات منهم الكلامُ جملةً، أو فهم الشيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكلِّ مشكل في هذا النمط فهي من المَهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب: هو معرفة مقتضى الحال»[1].

وصفوة القول في هذا:

«إن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه، والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الخلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع، ويوضح هذا المعنى ما روى أبو عبيد بن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يُحدِث نفسَهُ: كيف تختلف هذه الأمة ونبيُّها واحد وقِبلتُها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنّا أُنزِل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيمَ نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوامٌ يقرؤون القرآن ولا يدرون فيمَ نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، قال: فزجره عمر، وانتهره فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال فعرفه»، فأرسل إليه، فقال: أعِد عليّ ما قلت فأعاد عليه، فعرف عمرُ قوله فأعجبه وما قاله صحيح في الاعتبار، ويتبين فيما هو أقرب، فقد روى ابن وهب عن بكير أن سأله نافع: كيف كان رأي ابن عمر في «الحرورية»[2]؟ قال: يراهم شرار خلق الله إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين» فهذا معنى الرأي الذي نبّه إليه ابنُ عباس وهو الناشىء عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن»[3].

(1) الشاطبي، الموافقات، ج3، ص (347).

(2) الحرورية: هم الخوارج التي حوّلت النصوص عن مقاصدها، وتكفّر من خالفها، وسميت بهذا الاسم لأنها أول نزولها كان بمكان يسمَّى «حروراء». انظر مقالات الإسلاميين واختلاف المصدرين للأشعري، ص (128).

(3) الشاطبي، الموافقات، ج 3، ص (347 ـ 348).

الفصل الثاني

الوحي والقرآن

- ظاهرة الوحي:
- معاني الوحي:
  1 - الإلهام الغريزي.
  2 - الإلهام الإرادي.
  3 - معنى الإشارة.
  4 - الوسوسة.
- كيفية نزول الوحي.

الصورة الأولى: الوحي المباشر.

الصورة الثانية: الكلام من وراء حجاب.

الصورة الثالثة: الوحي عن طريق رسول الله ﷺ.

- كيفية نزول الوحي عند السيوطي في الإتقان.
  1 - مناقشة فكرة الوحي.
  2 - موقف العلم من مسألة الوحي.
  3 - الأدلة العقلية على ثبوت ظاهرة الوحي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الوحي والقرآن

• ظاهرة الوحي:

تتراوح كلمة «الوحي» بمعانيها اللغوية بين الإشارة، والإلهام، والكلام الخفي، والكتابة والرسالة، وما يوحيه الله إلى أنبيائه»[1].

من البديهي أن نقول «لكل فكرة أساس ترتكز إليها». فركِيزةُ الإيمان بالقرآن وبنبوة محمدﷺ الإيمان بالوحي، ومن لم يؤمن بوجود الوحي فليس من الممكن أن يؤمن برسالة الأنبياء المتصلين بالله تعالى المتلقين عن الله بوساطة الوحي. وهذا «على غير الطريقة المعتادة بين البشر»[2]. وبنمو المقاييس المادية لدى الباحثين والدارسين في القرن العشرين أصبح الإيمانُ بمسألة الوحي أمراً غير مقبول بسهولة، إن لم نَقُلْ إنهم «يلقون حبالاً وعصياً في سبيل المؤمنين»[3].

فما حقيقة الوحي؟

الوحي بالمصطلح الشرعي: أن يُعلِمَ اللَّهُ تعالى من اصطفاه من عباده كلّ ما أراد إطلاعَهُ عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرّية خفيّة غير معتادة للبشر»[4].

• معاني الوحي:

1 ـ معنى الإلهام الغريزي: وهو واضح في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى

---

(1) الفيروزآبادي، المحيط، مادة: وحي. وانظر المعجم المدرسي مادة: وحي.
(2) الزرقاني، مناهل العرفان، بديع السيد اللحام، دمشق، دار قتيبة، ط، (1/ 91).
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.

obeikandl.com

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1]. فكلمة الوحي في هذه الآية تفيد معنى التكوين الغريزي الذاتي وهو في إطار الخلق والتكوين. وهذا معنى يختلف عن معنى «الوحي» الذي نتحدث عنه، وكلمة الخلق والتكوين والتوجيه أدقُّ من كلمة الإلهام في هذه الآية، لأن اتخاذ الجبال والأشجار بيوتاً للنحل صفة ذاتية وتكوين غريزي ـ والإلهام يغلب عليه تكوين الاستعداد لسلوك غير مألوف. فإذا كان السلوك مألوفاً عن طريق التكوين الغريزي لا يسمى «إلهاماً»، فلا يُقال في الأمور الغريزية إلهام إلا عن طريق تكوين الاستعداد عند الخلق»[2].

2 ـ معنى الإلهام الإرادي: وهذا بادٍ في قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾[3].

وواضح من الآية أن كلمة «وأوحينا» لا تقتصر معنى الإلهام؛ فالإلهام توجيه خفيٌّ لا يُدرك مصدرُه، وفي هذه الآية توجيه رباني مقترن بأوامر وتعليمات وفيه نهي عن الخوف وتبشير من الله بعودته إلى أمه، وأنه سيكون من المرسلين، ولا بد أن أمَّ موسى أدركت مصدر هذا الإلهام، وعرفت أنه من الله، ولهذا نفذت ما أُمِرَتْ به واطمأنَّتْ، ولولا ذلك لما نفَّذت هذا الأمر الذي لا يمكن لأمٍّ أن تفعلَهُ، وكيف يمكن لأم أن تلقي وليدَها في اليم لمجرد خاطر عابر لا تعرف مصدرَهُ وهو أمر خارج عن نطاق الفطرة، فالفطرة تأبى أن تلقي الأمُّ وليدَها في اليم»[4].

3 ـ معنى الإشارة الآمرة الظاهرة: وهذا بادٍ في قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[5].

ومعنى الوحي هنا: أمر يفيد «التوجيه والتعليم وليس مجرد الإشارة»[6].

4 ـ معنى الوسوسة: وهذا في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[7]. وهذا المعنى لغوي، وكلمة الوسوسة ليست دقيقة، فالشياطين يوسوسون حيناً، ويأمرون أولياءهم حيناً آخر ويزينون لهم فعل الشر، وجاءت في نفس المعنى في

(1) سورة النحل، الآية (68).
(2) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (45، 46).
(3) سورة القصص، الآية: (7).
(4) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (46). والآية من سورة النحل.
(5) المصدر نفسه. والآية من سورة مريم، الآية (11).
(6) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية ص (46).
(7) سورة الأنعام، الآية: (121).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

ومعظم معاني الوحي الواردة في القرآن الكريم جاءت في معنى الوحي المنزل من عند الله «وهي الكلمة القرآنية التي ترددت في القرآن في كل آية أراد الله بها بيان طريقة توجيه الأمر الإلهي لرسله وأنبيائه وتعليمهم»[2]. ووحي الله إلى رسولهﷺ كان بوساطة الأمين جبريلعليه السلام «وهو ملك كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين، مطاعٌ ثمّ أمين ـ وهذا النوع كان من أشهر الأنواع، وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل وهو المصطلح عليه «بالوحي الجليّ»[3] قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[4].

وهذا الوحي «الملك جبريل» كان ينزل على الرسولﷺ أو يظهر له بأشكال أو بأساليب شتّى:

فتارةً يظهر للرسولﷺ في صورته الحقيقية الملَكِيَّة. وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه ـ وهذه صور: «**الوحي المباشر**»: وفي هذا «يبرز معنى الإلهام أو النفث في الروع وهو إلقاء المعنى الموحى به في القلب، والقلب في نظر القرآن هو مصدر المعرفة وهو موطن الفهم»[5]. «ويختلف الوحي المباشر عن الإلهام الغريزي أو الفطري، فالإلهام قد يكون نابعاً من الذات وقد يخطىء الإنسان فيه، أو يصيب فلا يعرف مصدره، فلا يلتبس الأمر عليهما، وهو خاص بالأنبياء، ولا يكون لغير الأنبياء بخلاف الإلهام الفطري فقد يكون لغير الأنبياء، وقد يكون إلهام خير، أو إلهام شر، ويختلف مصدرُه»[6].

وقد يهبط الوحي على رسول الله في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه، وتارة يهبط على الرسول خفيةً فلا يُرى ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة، فيغط ويثقلُ ثقلاً شديداً، وقد يتصبب منه الجبين عرقاً في اليوم الشديد البرد»[7].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: (112).
(2) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (47).
(3) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 92).
(4) سورة الشعراء، الآيات: (193 ـ 195).
(5) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية ص (50). راجع حديث بدء الوحي الذي رواه البخاري (الحديث: 2).
(6) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية ص (50).
(7) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 92، 93).

وقد يكون وقع الوحي على الرسولﷺ كوقع الجَرَس إذا صلصل في أذن سامعه، وذلك أشدُّ أنواعه وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسولﷺ كأنه دوّيُّ النحل لكنهم لا يفقهون كلاماً، ولا يفقهون حديثاً ـ وقد روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول اللهﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلقِ الصبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك فقال: «اقرأ»[1].

وقد سأل الحارث بن هشام رسولَ اللهﷺ عن الكيفية التي يأتيه الوحي بها فقال:

ـ يا رسول الله كيف يأتيك الوحيّ؟

ـ فقال رسول اللهﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه علي، فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**»، قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليفصم عرقاً»[2].

• كيفيات الوحي:

وهنا أنقل كيفية الوحي عند السيوطي ففي ملخص شافٍ:

ذكر السيوطي في الإتقان كيفية الوحي بقوله:

ذكر العلماء للوحي كيفيات:

إحداها: أن يأتيه المَلَك مثل صلصلة الجرس كما في الصحيح وفي مسند أحمد: عن عبد الله بن عمر، سألت النبيﷺ: هل تحس بالوحي، فقال: «**أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما مرة يُوحى إليّ إلا ظننتُ أن نفسي تُقْبضُ**». قال الخطابي: والمراد أنه صوت متدارك يسمعُه ولا يبين له أول ما يسمعُه حتى يفهمَهُ بعد، وقيل هو صوت خفق أجنحة المَلَك. والحكمة في تقدمه أن يقرعَ سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكاناً لغيره، وفي الصحيح أن هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه، وقيل: إنه كان ينزل هكذا إذا نزلت آيةُ وعيد وتهديد.

الثانية: أن ينفث في روعه الكلام نفثاً، كما قال رسول اللهﷺ: «**إن روحَ القدس نفث في روعي...**»[3] [أخرجه الحاكم]، وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها، بأن يأتيه في إحدى الكيفيتين وينفث في روعه.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3) و(الحديث: 4953)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 401).

(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 2) و(الحديث: 3215).

(3) رواه البغوي.

الثالثة: أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمَهُ كما في الصحيح: «**وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**»[1].

الرابعة: أن يأتيَهُ الملكُ في النّوم، وعَدّ قومٌ من هذا «سورةَ الكوثر».

الخامسة: أن يكلمه الله إما في اليقظة كما في ليلة الإسراء أو في النوم كما في حديث معاذ: «**أتاني ربي فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى..**»[2].

● **مناقشة فكرة الوحي**: بديهي أن تخضع ظاهرة الوحي لنقاش معمّق خاصة من قبل أصحاب المنهج المادي الذين يجدون صعوبةً في الإيمان بالغيب..، في حين نجد المؤمنين حقاً هم المؤمنون بفكرة الوحي لإيمانهم بالغيب لأن الإيمان بالغيب «يمنح الحياة المادية التوازن... ويفسر بعض مظاهر الحياة، ويضبط مسارها، ويملأ ذلك الفراغ الثقيل في حياة البشر»[3].

أما الرافضون لمسألة الوحي فمنطقهم يستند إلى نكران عالم الغيب لأنه غير مشاهَد من قبل الحواس ويقولون: إنهم يحتكمون للعقل، فما أثبته العقل من عالم الحواس أثبتوه، وما أنكره العقل من عالم الحواس أنكروه... ولكن السؤال: هل ينكر العقل المنصف وجود عالم الغيب أو عالم الروح؟

الجواب: «لم يستطع العقل أن يقيم الدليل على عدم وجود عالم الروح، بل إن العقل في معظم الأحيان يُسلّم بوجود عالم غير محسوس لا تراه الأبصار، ولا تدركه العقول، إلا أنه لا يتصور الحياة بدونه، وتقوم أدلة وقرائن على وجود عالَم روحيٍّ أشمل من عامل المادة، وهو عالم غير محدود، يحيط بحياة الإنسان، ويفسر حركتَه»[4].

ثم من جهة أخرى فإن منكري الوحي عندما يقولون: إنهم يؤمنون بما يثبته العقل منهم «يؤمنون بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها، وبالعلم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث وهو «جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته»[5].

وهؤلاء جعلوا «الشك أساساً للبحث والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون

---

(1) هو جزء من حديث أخرجه البخاري (الحديث: 2) وَ(الحديث: 4953).
(2) السيوطي، الإتقان (1/ 128 ـ 129).
(3) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (53).
(4) المصدر نفسه.
(5) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 93).

سواه، فهم يُقدِمون الشك ويُمْعِنون فيه ثمَّ لا يعترفون إلا بالحسيّات، ولا يحفلون بمجرد العقليات»[1]. لذا فإن منهجهم قادهم إلى الحال التي أصبحوا فيها «ينكرون ما وراء المادة، ويسرفون في الشكوك إلى أبعد الحدود ويستخفّون بأمر الإلهيات والنبوات والوحي إلى مدى بعيد»[2].

وسوف نتدرج بمناقشة أدلة الوحي العلمية كي تُساق على نحوٍ عقلي منطقي وكي لا يضيع القارىء في أجزاء البحث.

● **موقف العلم من مسألة الوحي**: وهي أدلة مهمتها إثبات إمكانية الوحي وتقريبه إلى العقول[3].

وعندما نقول بالإمكانية يعني هذا أن وجود الوحي لا يناقض أحكام العقل، أي أن وجود ظاهرة الوحي ليس مستحيلاً عقلياً إنما هو من الممكنات العقلية. «وإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع، وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي»[4] لذا فإن الزرقاني رأى من الصواب والحق أن تتقدم الأدلة العلمية على وجود الوحي أو وجوب الإيمان به وتتبوأ مكان الصدارة على ما سواها من الأدلة[5].

الدليل الأول: التنويم الصناعي، أو التنويم المغناطيسي: وهو من المقررات العلمية الثابتة، كشفه الدكتور «مسمر» الألماني في القرن الثامن عشر، وجاهد هو وأتباعه على مدى قرنٍ كامل في سبيل إثباته... فاعترف العلماء به علمياً، بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلّفة من الخلق واطمأنوا إلى تجاربه، وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأتي:

1 ـ أنّ للإنسان عقلاً باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً.

2 ـ أنه وهو في حالة التنويم يرى ويسمع من بُعدٍ شاسع ويقرأ من وراء حُجب ويُخبر عما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه.

3 ـ أن للتنويم درجات بعضُها فوق بعض يزداد العقل الباطن سمواً بتنقله فيها.

4 ـ أنه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده وتمثل إلى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت، لولا علاقة خفية بين الروح والجسم.

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 93).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، (1/ 94)، بشيء من التصرف.
(4) انظر في مناهل العرفان (1/ 94).
(5) انظر في مناهل العرفان (1/ 94).

5 ـ أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً.

6 ـ أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال.

7 ـ أن الروح لا تنحلُّ بانحلاله.

8 ـ أنها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجردت عن المادة»[1].

ويسوق صاحب مناهل العرفان ما رآه بعينه، وسمعه بأذنه، ... على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير حضر ليشهد محاضرة مهمة في التنويم المغناطيسي، وإثبات أنه يمكن أن يُتخذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه:

قام المحاضر ـ وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي ـ وأحضر الوسيط وهو فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالأستاذ، والأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط. فالأول ضعيف النفس، والثاني قويُّها، وللضعف والقوة وجوه ليس هذا هو موضع بيانِها. نظر الأستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة وأجرى عليه حركات يسمونها سَحَبات، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغطُّ غطيط النائم، وقد امتقع لونُه، وهمدَ جسمُه، وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدُنا يَخِزُهُ بالإبرة وخَزَات عدة، ويَخِزُهُ كذلك ثانٍ وثالث، فلا يبدي الوسيط حراكاً، ولا يُظهِرُ أي عَرْضٍ لشعوره وإحساسه بها، وحينئذٍ تأكدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعي أو المغناطيسي. وهناك تسلّط الأستاذ على الوسيط يسألُهُ:

ما اسمك؟ فأجابه باسمه الحقيقي. فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنما اسمك كذا ـ وافترى عليه اسماً آخر ـ ثم أخذ يقرر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق بوساطة أغاليط يُلقنها إياه في صورة الأدلة، وبكلام يوجهُه إليه في صيغة الأمر والنهي، وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاءً، وفرضها عليه فرضاً حتى خضع لها الوسيط وأذعن»[2]. ثم يقول الزرقاني موضحاً ماحصل بعد كل ذلك:

ثم «أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأخرى في فترات متقطعة وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك وهو لا يجيب. ثم نناديه كذلك باسمه الموضوع فيجيب دون تردد ولا تلعثم... ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظه. ثم أيقظه وأخذ يتم محاضرته ونحن نَفْجَأُ الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يجيب، ثم نفجؤه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروبة عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 94 ـ 95).

(2) المصدر نفسه، (1/ 95 ـ 96).

الحقيقي باسمه الحقيقي»[1].

يقول الزرقاني معقباً على ما سبق:

«وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوِّم ـ بكسر الواو ـ يستطيع أن يمحوَ من نفس وسيطه كلّ أثر يريد محوه، مهما كان ثابتاً في النفس، كاسم الإنسان عينه، ومهما كان مقدساً فيها كعقائد الدين.

وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين:

أحدهما: أن محو الدين عدوان أثيم، وإجرام شنيع، لم تقبلهُ نفسية المحاضر ولا المحاضرين.

ثانيهما: أن الاسم أثبت في نفس صاحبه من دينه، فمحوه أعجب، ومنه تعلم أن محوَ الدين فيها أيسر!

وبهذه التجربة أيضاً ثبت لي أنا من طريق علمي ما قرّب إليَّ الوحي عملياً، وما جعلني أعلله تعليلاً علمياً: فالوحي عن طريق المَلَك عبارة عن اتصال المَلَك بالرسول اتصالاً يُؤثر به الأول في الثاني ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما، فالأول فيه قوةُ الإلغاء والتأثير لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك. وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغيير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، وينطبع ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً»[2].

فإذا كان المخلوق قادراً على أن يؤثر في مخلوق على نحو ما رأينا من تأثير أستاذ التنويم المغناطيسي على تلميذه، فهل من الصعب على مالك القوى وخالقها أن يؤثر في نفس عبدٍ من عباده عن طريق الوحي الملك المرسل إلى ذلك العبد؟ كلا، ثم كلا، لأن الله على كل شيء قدير. ثم أنه الأعلم والأحكم في اختيار الطريق المثلى للاتصال بعباده المُرْسَل إليهم، وهو الأعلم بالطريقة المؤثرة في نفوس عباده ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[3].

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 96 ـ 97).
(2) المصدر نفسه.
(3) سورة الملك، الآية: (14).

الدليل العلمي الثاني: «إن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفُه ونشاهده وننتفع به. مثل: (الهاتف ـ واللاسلكي ـ والمذياع..) وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه وأن يفهمه ما شاء ويرشده إلى ما أراد، فهل يُعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإلٰهُ القادر، عن أن يوحي إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك؟ تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيراً.

الدليل الثالث: استطاع العلم أن يملأ أسطوانات أو أشرطة كاسيت أو ما نسميه بالقرص الليزري وبوضع هذه الأدوات في الأماكن المخصصة لها من أجهزتها تؤدي الكلام بدقة وإتقان ـ فهل يُستبعد على الله القادر من أن يملأ نفوساً صافية طيبة بكلام طيب مبارك يهدي به الخلق سبل الرشاد!

الدليل الرابع: قرر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية، تعتبر من الخوارق التي لم يكن يحلم بحدوثها العلماء على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا في حالة ذهول، وقد استحال تعليل ما أتوا به تعليلاً مادياً يستند إلى الحس، وقد اختبروا تلك الظواهر، واستحضروا لشهودها أكبر مشعوذي الأرض فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة في شيء، وإنما هي أحداث روحانية، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد.

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس في حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية فكيف يُستبعد بجانب هذا الكشف العلمي أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحي، بينما هم من كملة العقول والأخلاق؟ لقد أسفر الصبح لذي عينين»[1].

وفي هذه المناسبة لا بد لنا من التنويه والتذكير أن الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن يريد أن يقرر أن الوحي الذي هو اتصال النبي ﷺ بالملأ الأعلى ـ كاتصال المُنوِّم أو الوسيط في التقويم المغناطيسي أو الصناعي بالأرواح ـ وإنما أتى الزرقاني بهذا المثال من باب التقريب، أي ليقرب فكرة الوحي إلى عقول الماديين وليبين لهم: أن التواصل بين الأحياء والأرواح لا ينكرها العقل العلمي بل أقام العلم الدليل على حصول مثل هذا التواصل»[2].

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 101).

(2) من كلام بديع السيد اللحام في تحقيقه لمناهل العرفان، (1/ 94). بتصرف.

• الأدلة العقلية على ثبوت ظاهرة الوحي:

إن الدليل العقلي على وقوع الوحي هو ما أخبر عنه الصادق المعصوم في الأحاديث السابقة التي قد سقناها من القرآن أو من السنة الثابتة في الصحاح... «فلولا أن الكلمة وردت إلينا من هذه المصادر، لما كان لها وجود في أفكارنا ولا في أفكار أعداء الإسلام، ومن ثم لم يكن ليقوم حولها أيّ بحث، ولم تكن لتفسر بأي نظرية من النظريات أو معنى من المعاني لا عندنا نحن المسلمين، ولا عند أولئك الآخرين»[1].

وما دام المصدر الوحيد لوجود ظاهرة الوحي القرآن والسنة الصحيحة وهما الوثيقتان التاريخيتان الوحيدتان اللتان أكدتا ظاهرة الوحي، فمن غير الصحيح البتة أن «نضرب صفحاً عن هذه النصوص عندما تتولى لنا تفسير هذه الظاهرة وكشف اللثام عنها»[2].

ويعلل البوطي ذلك «لأن كل مفكر يعلم أن الباحث عليه أن يسلك أحد السبيلين: إما أن يضرب صفحاً عن حديث التاريخ كله وعن هذه النصوص الواردة جميعها، وعندئذٍ فليس له أن يتحدث عن شيء اسمه الوحي في حياة رسول الله ﷺ أصلاً، لأن المفروض أنها كلمة غير موجودة في حياته، وإمّا أن يعتمدها ولا يسعُه إنكارُها، وعندئذٍ فإن عليه أن يلقي السمع إلى كل ما تثبته وتنطق به هذه النصوص من الحقائق والوقائع. ولذلك: صح لنا أن نقول في غير مبالغة ولا تجنٍ على الحقيقة: إن أولئك الذين يعمدون إلى نصوص القرآن والسنة ونصوص السيرة فيستلون منها كلمة «الوحي» مجردةً ومشذّبة عن كل ما يتولى تفسيرها وبيانها من تلك النصوص نفسها، ليرغموا الكلمة على أن تحمل معاني وتأويلات أخرى غير تلك المعاني التي تولّى التاريخ وتولّت النصوصُ إعطاءَها إياها ـ نقول: إنّ أولئك العابثين لا يعاندون العلم فقط، بل إنهم ليعاندون العقل في أوضح مقتضياته البديهية المسلمة»[3].

فالأحداث والوقائع المجتمعة بنزول الوحي كما وصلت إلينا بالأسانيد الموثقة كلها تشير إلى عظيم الحكمة، وكبير العناية الإلهية برسول الله ﷺ:

«لقد فوجيء محمد ﷺ وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ «حتى يتبين له أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد

---

(1) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ط (5)، دار الفكر/ دمشق، (1397هـ) ص (201).

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص (202).

وإنما هو استقبال وتلقٍ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضمّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل مرة: اقرأ ـ يعتبر تأكيداً لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط»[1].

«ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى حتى أنه قطع خلوتَه في الغار وأسرع عائداً إلى البيت يرجف فؤادُه»[2].

من هنا يظهر لكل باحث منصف أو مفكر حر همه الوصول إلى الحقيقة أن الرسول لم يكن تواقاً أو مشتاقاً هذا الشوق الشديد للرسالة، «وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأتِ منسجمة أو متممة لشيء مما كان قد يتصوره أو يخطرُ في باله وإنما طرأت طروءاً مثيراً على حياته، وفوجيء بها (بالرسالة) دون أي توقع سابق»[3]. «ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه ـ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدة يؤمن بالدعوة إليها... ثم إن شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية لا تستدعي الخوف والرعب واصفرار اللون. يدل على ذلك القياس اليقيني القائم على استقراء الحالات وجميع الظروف المشابهة، وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى، وإلا للزم من ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة. وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون ـ كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها، حتى لو فرضنا! إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه ﷺ وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة من الصدق والأمانة إلى عكس ذلك تماماً»[4].

لقد خشي الرسول على نفسه عندما قال لخديجة: «**لقد خشيت على نفسي**» أي من الجان، ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة. «وقد كان الله عزّ وجل قادراً أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلّمه ليس إلا جبريل: ملك من ملائكة الله جاء ليخبرَه أنه رسول الله إلى الناس ـ ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد قبل البعثة، وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو

(1) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات، ص (203).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، ص (204).

التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول ﷺ مسبقاً، ولم يتصور الدعوة إلى شيء منه مطلقاً»[1].

وكذلك فإن جواب ورقة بن نوفل لخديجة التي سألته عما فوجيء به الرسول ﷺ الذي أكد إنما هو الوحي الإلهي الذي قد نزل على رسل الله السابقين...

وأما في انقطاع الوحي لفترة طويلة بلغت الأشهر فإن فيه رداً بليغاً على ما قاله «محترفو الغزو الفكري مفسرين به ظاهرة الوحي النبوي من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتفكير وأنه أمر داخلي منبعث من أعماقه[2]...

هذا فضلاً عن أن الرسول كان لا يجيب على كثير من الأسئلة التي تواجهه منتظراً وحي ربه، فلو كان الأمر إشراقات فليس بإمكانه أن يستدعي هذه الإشراقات النفسية في كل وقت يحتاجه، كأن يستحضر الإشراقات وقت توجه الأسئلة إليه أو في أوقات المحاججة مع خصومه في الدعوة ـ ثم إن كلام رسول الله ﷺ في الحديث مختلف كل الاختلاف عن الذي بلغه للناس على أنه قرآن. فهل الإشراق النفسي يتباين بين اللحظة والأخرى!!

• من الشُبه المطروحة حول مسألة الوحي:

1 ـ لماذا يتنزل الوحي على محمد رسول الله دون أن تبصره عيون الصحابة وهم معه في المجلس نفسه الذي تنزل الوحي فيه على رسول الله ﷺ؟

يجيب محمد سعيد رمضان البوطي: «أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محددة بحد معين، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بُعداً يمنع من رؤيته. على أن من اليسير على الله جلَّ جلاله وهو الخالق لهذه العيون المبصرة أن يزيد في قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى»[3].

يقول مالك بن نبي: «إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حالة نموذجية لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون، وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت عملياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة كما يحدث في حالة الخلية الضوئية الكهربائية»[4]. هذا ـ ناهيك «أن ظاهرة الوحي

(1) لمزيد من الاطلاع انظر: محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات، ص (204، 205).
(2) المصدر نفسه.
(3) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقنيات، ص (206، 207).
(4) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (151)، دار الفكر، دمشق، ط 2 (1987).

obeikandl.com

سيصحبها فيما بعد دلائل حسية يشعر بها بعض من شاهدوها خلال حدوثها»[1].

وقد أشرنا فيما سبق إلى حالات نزول الوحي: مثل صلصلة الجرس وما رافقها من تفصُّد جبين رسول الله ﷺ عرقاً.

ثم إن استمرار الوحي حقيقة قاطعة أنه ليس ظاهرة نفسية محضة وفق ما أراد المضللون أو المشككون، وهذا يمكن إجماله على النحو التالي:

1 ـ التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه؛ لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث فمعناه وحي من الله عزّ وجل، ولكن لفظه وتركيبه من عنده ﷺ.

2 ـ كان النبي ﷺ يُسأَل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها وربما مرّ على سكوته زمن طويل حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله، وربما تصرف الرسول على وجه معين فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه وربما انطوت على عتب أو ملامة له.

3 ـ كان الرسول ﷺ أمياً... وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية»[2]... إذ أن تتابع نزول الوحي جعل الحقائق التاريخية والاجتماعية تتزاحم في وعيه علماً أن هذه المعارف التاريخية والاجتماعية لم يسبق أن سُجِلَت في صفحة معارفه، بل حتى في معارف عصره، ومناحي اهتمامه... هذه الحقائق ليست مجرد تعميمات غامضة، ولكنها معلومات محددة تضم تفاصيل هامة عن تاريخ الوحدانية. فقصة يوسف عليه السلام المفصلة، مثلاً، أو التاريخ المفصل لهجرة بني إسرائيل لا يمكن اعتبارهما مجرد اتفاق عارض، بل يجب حتماً أن يأخذ لدى محمد ﷺ صفة الوحي العلوية»[3].

وما قلناه حول معرفته بقصة يوسف ينسحب على كل القصص مثل قصة أم موسى وإلقائها وليدها في اليم، وقصة فرعون... «ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه أمياً ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[4].

لذا كان حقاً قولُ القرآن ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ

(1) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (151).
(2) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات، ص (208).
(3) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (157).
(4) سورة العنكبوت، الآية: (48).

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

4 ـ ولعل ادعاء أي شخص في قضية من القضايا يخضع ـ عند الناس الذين عايشوه لفترة ليست قصيرة من الزمن ـ للاختبار والمقارنة بين ادعائه وماضي حياته، أي أن الناس سيدرسون تاريخه الشخصي هل كان كاذباً أو صادقاً في سيرته الذاتية الحياتية؟

فالتاريخ حدثنا حديثاً لا مراء فيه جازماً بصدق محمد «وهو قبل ذلك صادق مع نفسه، فدراسته الواعية لحالته الغريبة يجب أن يكون نوعاً من الدرس الباطني القرآني، لتقضي هذه الدراسة على أي شك يخايل عينيه»[2]... إذاً صدق الرسول سيدفعه لدفع كل الشكوك التي يمكن أن تبعد عنه حقيقة ما هو فيه. وعلى ذلك فإن محمداً رسول الله ﷺ سيقوم بالدراسة التي ستجزم بحقيقة ما هو فيه وفق منهجين مختلفين:

الأول: ذاتي محض يقتصر على ملاحظته وجود الوحي خارج الإطار الشخصي.

والثاني: موضوعي يقوم على الموازنة الواقعية بين الوحي المنزَل، وما ورد من التفاصيل المحددة في كتب اليهود والنصارى مثلاً، وكأنما كان الوحي ـ أحياناً ـ يعلمُه هذا المنهج الأخير الموضوعي عندما لا يكون الأمر أمر اقتناعه هو ـ لأنه اقتنع منذ زمن طويل ـ بل أمر تأسيس وتربيةً للذات المحمدية، ولا سيما عندما يجادل المشركين عن عقيدته، أو وفود النصارى الآتية من أطراف الجزيرة، كوفد نجران الذي أتاه ليناقش معه عقيدة التثليث وفي هذا يحدثه الوحي صراحة»[3]:

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾[4].

فقال النبي ﷺ عندئذٍ: «**لا أشكّ ولا أسأل**»[5].

من ذلك ظهر لنا النهج الذي سلكناه في تحديد فهمنا لمسألة الوحي في حياة النبي ﷺ، الذي يمكن أن نلخصَهُ «بأننا نجد أنفسنا أولاً أمام خبر يقيني وصل إلينا بالتواتر، طبق شروطه المعروفة، ألا وهو خبر أن النبي ﷺ قد أوحي إليه»[6].

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: (49)، وانظر كبرى اليقينيات، ص (208).
(2) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص (158).
(3) المصدر نفسه، ص (157، 158).
(4) سورة يونس، الآية: (94).
(5) أخرجه عبد الرزاق وابن جبير عن قتادة.
(6) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات، ص (208).

وبعد أن يجد الباحث الحقيقة ماثلةً على صدق النبيﷺ بنزول الوحي عليه، وجدنا هذا الخبر الموحى يقدم لنا وقائع وأحداث كان لا بد من قبولها بالتصديق والإثبات، بعد أن صدقناه في إثبات أصل الوحي. ولما فرضنا (مع تصديق هذه الوقائع واعتمادها) أن يكون الوحي شيئاً مما يقوله الجاحدون بنبوته عليه الصلاة والسلام، وجدنا هذه الفرضية تستلزم لزوماً بيناً نتائج باطلة لا يقبلها عقل أي مفكر. فالملهمون والشعراء لا يقعون فريسة لارتعاد الفرائص واصفرار اللون عندما يمارسون شيئاً من التفكير، ومحمدﷺ لا يعقل أن يكون منطوياً في وقت واحد على أدق صفات الأمانة والصدق وعلى أحط مظاهر التدجيل والكذب والتمثيل. وإذا ظهر بطلان هذه النتائج في ميزان أي عقل سليم ظهر بطلان الفرضية التي استلزمتها. وإذا بطلت تلك الفرضيات، ثبت ما دلت عليه وقائع النصوص نفسها من أن الوحي لم يكن إلّا تلقياً منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة خارجة عن كيانه بعيدة عن إرادته، لم يكن مستشرفاً لها، ولا متوقعاً شيئاً منها»[1].

❀ ❀ ❀

(1) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات، ص (209).

obeikandl.com

الفصل الثالث

نشأة علوم القرآن

- اهتمام العلماء بالدراسات القرآنية.
- التصانيف في علوم القرآن بإيجاز.
- خصائص الآيات المكية.
- خصائص الآيات المدنية.
- علم الناسخ والمنسوخ.
- جدل العلماء في الناسخ والمنسوخ.
- خلاصة في المحكم والمتشابه.

obeikandl.com

obeikandl.com

نشأة علوم القرآن

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[1].

يقول الزركشي: «إن القرآن إنما أُنزِلَ بلسان عربي مبين في زمن أفصحِ العرب؛ وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه»[2]. لأنهم عرب خلّصٌ فصحاء متذوقون لأساليب العرب الرفيعة، «فإذا أشكل عليهم فهم شيء من القرآن سألوا عنه النبيﷺ، كسؤالهم لمَّا نزل: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[3]. فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه! ففسَّره النبيﷺ بالشرك! واستدلَّ عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] ـ وكسؤال عائشة ـ رضي الله عنها عن الحساب اليسير فقال: «**ذلك العرض، ومن نوقِش الحساب عُذِّب**»[5] ـ وكقصة عَدي بن حاتم في العقال الذي وضعه تحت رأسه»[6] وغير ذلك.

ولم تكن الحاجة قائمة إلى وضع تفسير للقرآن في عهد الرسولﷺ لأن الله تعالى آتى رسوله الكتاب وعلَّمَهُ.

أما الصحابة رضي الله عنهم فكانوا عرباً فصحاء يعلمون الكتاب على نحوٍ عام وما استغلِق عليهم سألوا عنه رسول اللهﷺ ـ «أما حادثة قصة عدي بن حاتم التي رواها مسلم في صحيحه فإنها حادثة فردية لا تنطبق على جمهور الصحابة الكرام، لذلك قال رسول اللهﷺ

---

(1) سورة يوسف، الآية: (2).
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (1/ 14).
(3) سورة الأنعام، الآية: (82).
(4) سورة لقمان، الآية: (13).
(5) الحديث أخرجه مسلم في (الحديث: 7156).
(6) في ذلك إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم في كتاب الصيام (الحديث: 2528) عن عدي بن حاتم لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187].

لحاتم: «**إن وسادتك لعريضة**»، كناية عن الغفلة، وإن كان القاضي عياض ينكر هذا ويرى أن المراد (إنك ضخم) ـ أو كما ورد في صحيح البخاري «**إنك لعريض القفا**»[1] والقصة في صحيح مسلم على النحو الآتي:

لمّا نزلت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال له عدي: يا رسول الله إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض، وعقالاً أسود أعرف الليل من النهار، فقال رسول اللهﷺ: «**إن وسادك لعريض، إنما هو سواد الليل، وبياض النهار**»[2].

وكما قلنا فإن هذه الحادثة فردية لا تنطبق على جمهرة الصحابة، كذلك فإن أكثرَ الصحابة أميون، ولم تكن أدوات الكتابة متيسرة لديهم... زد على ذلك أن رسول اللهﷺ نفسه قد نهاهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن، وقال لهم أول العهد بنزول الوحي «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[3]. وذلك حذراً من أن يخلط القرآن بغيره.

• علوم القرآن في عهد أبي بكرﷺ وبقية الصحابة الخلفاء ولمحة عن موضوع جمع القرآن:

«لقد ظلّت علوم القرآن تُروى بالتلقين والمشافهة على عهد رسول اللهﷺ ثم على عهد الشيخين أبي بكر وعمر ﷺ.

وفي خلافة عثمان ﷺ بدأ اختلاط العرب بالأعاجم، وأمر عثمان أن يجتمعوا على مصحفٍ إمام، وأن تنسخ منه مصاحف للأمصار، وأن يحرق الناسُ كلّ ما عداها، والذي يهمنا الآن من هذا أن الخليفة الراشدي الثالث عثمان ﷺ ـ بِنسخ المصاحف قد وضع الأساس لما سُمِّي فيما بعد بعلم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني»[4].

«وقد اشتُهِرَ أيضاً أن علياً ﷺ أمر أبا الأسود الدؤلي (ت 69هـ) بوضع بعض القواعد للمحافظة على سلامة اللغة العربية، فكان عليٌّ بذلك واضعَ الأساس لعلم إعراب القرآن»[5].

---

(1) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (119) هامش رقم (4).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الصيام (الحديث: 2528).

(3) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (120)، والحديث: أخرجه مسلم في (الحديث: 7435)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 2665)..

(4) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (120).

(5) المصدر نفسه.

«وفي وسعنا أن نقول: إن الممهدين لهذا العلم هم:

1 ـ من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري وعبد الله الزبير ﷺ.

2 ـ من التابعين: مجاهد وعطاء بن يسار وعكرمة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم في المدينة.

3 ـ مالك بن أنس من أتباع التابعين، وقد أخذ عن زيد بن أسلم.

«هؤلاء هم الواضعون لما نسميه علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن»[1].

إذاً يعود الفضل لهؤلاء في تأسيس هذا العلم؛ حتى جاء عصر التدوين في القرن الثاني إذ ظهرت كوكبة من المشتغلين والمصنفين في هذا العلم نذكر أبرزهم: «شعبة بن الحجاج[2]، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، ثم تلاهم ابن جرير الطبري (ت 310هـ)، أما في علوم القرآن الأخرى: علي بن المديني[3]، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم، في الناسخ والمنسوخ وفي القراءات وفضائل القرآن، ومحمد بن أيوب الضريس (ت 294هـ) فيما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة، ومحمد بن خلف المرزبان، (ت 309هـ): «الحاوي في علوم القرآن»[4].

وفي القرن الرابع: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: (ت 328هـ) «عجائب علوم القرآن» . . . وأبو الحسن الأشعري «المختزن في علوم القرآن» وهو عظيم جداً . . . وأبو بكر السجستاني (ت 330هـ) وله في «غريب القرآن» . . . الخ.

وفي القرن الخامس: علي بن إبراهيم بن سعيد الحُوفي، (ت 430هـ) «البرهان في علوم القرآن» و«إعراب القرآن» و«أبو عمرو الداني (ت 442هـ) «التيسير في القراءات السبع».

وفي القرن السادس: أبو القاسم عبد الرحمٰن المعروف بالسهيلي (ت 581هـ)»[5].

وظهرت مؤلفات في القرن السابع والثامن ولا سيما «البرهان في علوم القرآن»

---

(1) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (120، 121).
(2) هو محدث البصرة وأمير المؤمنين في الحديث، ت (160هـ).
(3) شيخ أهل الحجاز في التفسير، كوفي، ت (198هـ).
(4) ذكره الفهرست لابن النديم ص (241) ويقع في 27 جزءاً، بيروت دار الكتب العلمية، ط (1996).
(5) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (121، 122).

للزركشي. وفي القرن التاسع ظهر السيوطي بكتبه المتميِّزة مثل «الإتقان في علوم القرآن»[1] و«مفحمات الأقران في علوم القرآن» و «التحبير في علوم التفسير».

وفي القرن الأخير: أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب حول القرآن وتاريخه وعلومه «فألف الشيخ طاهر الجزائري «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن» ومحمد جمال الدين القاسمي «محاسن التأويل»، ومحمد عبد العظيم الزرقاني «مناهل العرفان في علوم القرآن» ومحمد علي سلامة «منهج الفرقان في علوم القرآن»، والشيخ طنطاوي جوهري «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»، وأديب العربية صادق الرافعي «إعجاز القرآن»، وسيد قطب «التصوير الفني في القرآن»، و«في ظلال القرآن» ومالك بن نبي «الظاهرة القرآنية» ومحمد رشيد رضا «تفسير القرآن، الحكيم» وفيه مباحث كثيرة في علوم القرآن ومحمد عبد الله دراز «النبأ العظيم» و «نظرات جديدة في القرآن»[2].

• المكي والمدني من القرآن الكريم:

من المعلوم أن الرسول الكريمﷺ قضى قسماً من حياته الدعوية في مكة، وقسماً آخر في المدينة ـ لذا فإن العلماء اصطلحوا على المكي معبرين عن القرآن الذي نزل قبل الهجرة، واصطلحوا بالمدني على ما نزل من القرآن الكريم بعد الهجرة، هذا إجمال، وسيأتي تفصيله بعد قليل.

ومعرفة القرآن المنزَل بمكة وبالمدينة اكتسب ضرورةً هامة لأن القرآن واكب المراحل التي قطعها الرسولﷺ بدعوته، كما أن المعرفة للمكي والمدني أسهم في تمييز الناسخ من منسوخه، وصولاً إلى الحكم النهائي في موضوع من الموضوعات، خاصة أن التشريع الإسلامي نزل متدرجاً مواكباً لمسيرة المجتمع الإسلامي، قال أبو القاسم الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري في كتابه «فضل علوم القرآن»:

«من أفضل علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكي في المدني وما يشبه نزول المدني في المكي»[3].

---

(1) هناك تشابه كبير بين الإتقان والبرهان، وهناك عبارات في الإتقان مأخوذة كاملة، وخاصة أقوال العلماء.

(2) انظر د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (125، 126).

(3) الزركشي، البرهان، (1/ 162).

وورد في الإتقان نقلاً عن ابن العربي:

«الذي علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكياً ومدنياً، وسفرياً وحضرياً، وليلياً ونهارياً وسمائياً وأرضياً، وما نزل بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار»[1].

اصطلاحات العلماء في المكي والمدني وفيها ثلاثة اصطلاحات:

الاصطلاح الأول: «أن المكي ما نزل بمكة، ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة». ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل على النبيﷺ بمنى وعرفات والحديبية».

ويدخل في «المدينة» ضواحيها كالمنزل عليه في بدرٍ وأحد.

وهذا التقسيم لُوحظ فيه مكان النزول كما ترى. لكن يُردُّ عليه أنّه غير ضابط، ولا حاصر، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيها، كقوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[2] فإنها نزلت بتبوك.

الاصطلاح الثاني: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني وما وقع خطاباً لأهل المدينة.

وعليه يُحمَل قول من قال: إن ما صُدِّر في القرآن بلفظ: «يا أيها الناس» فهو مكي! وما صُدِّر بلفظ: «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني، لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فخوطبوا بـ «يا أيها الناس» وإن كان غيرهم داخلاً فيهم، ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة.

وهذا التقسيم لُوحِظ فيه المخاطبون، لكن يَرِدُّ عليه أمران:

أحدهما: ما ورد على سابقةٍ من أنه غير ضابط ولا حاصر، فإن في القرآن ما نزل غير مصدّر بأحدهما نحو قوله تعالى في فاتحة سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾[3] وقوله تعالى في فاتحة سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾[4].

---

(1) السيوطي، الإتقان، (1/ 22). المكتبة العصرية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(2) سورة التوبة، الآية: (42).

(3) سورة الأحزاب، الآية: (1).

(4) سورة المنافقين، الآية: (1).

ثانيهما: إن هذا التقسيم غير مطَّرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين، بل إن هناك آيات مدنية صُدِّرت بصفة «يا أيها الناس» وهناك آيات مدنية صُدِّرت بصفة «يا أيها الذين آمنوا». مثال الأولى: سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾[1] وفي سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[2] ومثال الثانية: سورة الحج فهي مكية مع أن في أواخرها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾[3].

الاصطلاح الثالث: وهو المشهور: «أن المكي ما نزل قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة، وإن كان نزوله بمكة. وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول وهو تقسيم صحيح سليم، لأنه ضابط حاصر ومُطَّرد»[4].

• فائدة العلم بالمكي والمدني:

من المؤكد أن عدداً غير قليل من الفوائد نجنيها إذا عرفنا وميَّزنا بين المكي والمدني من القرآن، ويمكن إجمال بعض الفوائد على النحو التالي:

1 ـ تمييز الناسخ والمنسوخ، فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عُرِف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدنيَّ منها ناسخٌ للمكي نظراً إلى تأخُّر المدنيِّ عن المكي.

2 ـ ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية بتربية الشعوب والأفراد...»[5].

3 ـ ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف»[6]... وهذا ما يُفسِّر اهتمام المسلمين بمواطن النزول المكاني والزماني، مع ما رافق هذا النزول من الأحداث والمناسبات المساعِدة على فهم النص وتوجيهه على نحوٍ سديد.

وأما الطريق الموصلة إلى معرفة المكي والمدني فسبيله النقل عن الصحابة والتابعين،

---

(1) سورة النساء، الآية: (1).
(2) سورة البقرة، الآية: (21).
(3) سورة الحج، الآية: (77).
(4) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 245، 246).
(5) (6) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 246).

إذ لم يرد عن النبيﷺ نقلٌ صحيح في تحديد هذا الأمر، لأن القرآن كان ينزل على مشهد من جموع الصحابة هنا أو هناك.

• عدد السور المكية والمدنية:

بلغ عدد السور المكية وفق ما ذكره الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الإتقان» خمساً وثمانين سورة، وبلغت السور المدنية وفق هذين المصدرين تسعاً وعشرين سورة... ووقع الاختلاف في اثنتي عشرة سورة، ولعل سبب الخلاف أن بعض السور نزل بين مكة والمدينة، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على جدية البحث في هذا المضمار»[1].

• خصائص الآيات المكية:

أولاً ـ من حيث الأسلوب:

امتاز أسلوب الخطاب في الآيات المكية بالتعنيف والتهديد والوعيد والتخويف، نظراً لقساوة قلوبهم، لذا استعمل القرآن: «كلا» للزجر والردع... وخاطبهم بـ «يا أيها الناس»، وقصّ عليهم قصص الأنبياء السابقين وأممهم. كما أن الآيات المكية قصيرة.

ثانياً ـ من حيث الموضوع:

حثت الآيات المكية على تصحيح الإيمان، ونبذ الشرك بأنواعه، ودعت إلى الإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار... ونددت بعادات المكيين وتقاليدهم الجاهلية، وحقّرت عباداتهم الصَّنميَّة، وسلوكهم العدواني ضد المرأة، كما امتاز القرآن المكي بخطابه العقلي النقدي لآليات تفكير المكيين المقدّسة لآراء الآباء والأجداد، ودعاهم لتوظيف العقل الإنساني توظيفاً صحيحاً يقوم على التفكير الحر، والمطالبة بالبرهان والعلم والسلطان، والمقارنة والترجيح... والدعوة إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق.

• خصائص الآيات المدنية:

وكما جاءت الآيات المكية مستجيبةً للسمات العامة للمجتمع المكي، معالجة لعقائده وسلوكياته وعاداته وتقاليده... فالأمر نفسه يُقال حول الآيات المدنية، إذ كان المجتمع المدني يختلف بظروفه الداخلية والخارجية عن المجتمع المكي، ... وهذا بديهي أي أن الخطاب يجب أن يعالج مشاكل المخاطَب، ... وإلا كان الكلام لا طائل منه.

---

(1) الزركشي، البرهان، (1/ 194).

لذا فقد «اختلف أسلوب الخطاب القرآني، واختلفت موضوعاته، وتوجه الخطاب إلى أهل المدينة من مؤمنين ومنافقين ويهود، مشجعاً المؤمنين على الدفاع عن وجودهم وكيانهم، محذراً المنافقين من مغبة ما يفعلونَه في الظلام من غدر، ناصحاً إياهم بالتوبة، والتزام طريق المؤمنين»[1]. ويمكن إجمال خصائص الآيات المدنية على النحو التالي:

1 ـ بيان أحكام التشريع: من حدود وإرث ومعاملات مادية، وبيان مناهج الحكم، لذا جاءت الآيات المدنية ذات طبيعة تشريعية»[2].

2 ـ وضوح أحكام الجهاد: الذي لم يكن مشروعاً في مكة[3].

3 ـ توجيه الخطاب إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ..﴾[4].

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[5].

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾[6].

• علم الناسخ والمنسوخ:

لقد أنزل الله تعالى الكتاب (القرآن) تبياناً لكل شيءٍ وهدى ورحمة، وفرض منه فرائض محكمة، وفرض فرائض أُخرَ نسخها رحمة بعباده، وتوسعة عليهم، وتخفيفاً، فكل ما أثبته الله تعالى من الفرائض أو ما نسخه بالمحصلة في مصلحة العباد ورحمة بهم.

«وأبان الله لهم أنه إنما نسخ ما نسخ من الكتاب بالكتاب، وأن السنة لا ناسخة للكتاب، وإنما هي تَبَعٌ للكتاب بمثل ما نزل نصاً، ومفسِّرةً معنى ما أنزل الله منه جملاً»[7].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾[8]. وقال تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾[9].

---

(1) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (137).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة المائدة، الآية: (90).
(5) سورة آل عمران، الآية: (200).
(6) سورة البقرة، الآية: (278).
(7) الشافعي، الرسالة، ت محمد أحمد شاكر، ط دار الفكر، ص (106).
(8) سورة يونس، الآية: (15).
(9) سورة الرعد، الآية: (39).

قال الشافعي: «في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾: بيان ما وضعتُ من أنه لا ينسخُ كتاب الله إلا كتابُه، كما كان المبتدىء لفرضه، فهو المزيل المثبت لما شاء منه، جل ثناؤه، ولا يكون ذلك لأحد من خلقه»[1]. وقال الشافعي: «بعض أهل العلم ـ في هذه الآية. ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[2]. ـ والله أعلم ـ دلالة على أن الله جعل لرسوله أن يقول من تلقاء نفسه بتوفيقه فيما لم ينزل به كتاباً. والله أعلم ـ وقيل في قوله: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يمحو فرض ما يشاء، ويثبت فرض ما يشاء»[2].

وبملاحظة قول الشافعي يظهر أنَّ بعض أهل العلم قالوا بنسخ القرآن بالسُّنة. ولكن الآية الكريمة: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾[3].

«فأخبر الله أن نسخ القرآن وتأخير إنزاله لا يكون إلا بقرآن مثله»[4].

والسنة ليست مثلَ الكتاب، ولا أفضل منه... أما السنة فتنسخها سنة، «وهكذا سنةُ رسول الله: لا ينسخها إلا سنة لرسول الله. ولو أحدث الله لرسوله في أمر سنَّ فيه غير ما سنّ رسول الله لسنَّ فيما أحدث الله إليه، حتى يبينَ للناس أن له سنةً ناسخة للتي قبلها، مما يخالفها.

وهذا مذكور في سنته ﷺ[5]. وبالمحصلة فإن في الناسخ والمنسوخ ما يدل الكتاب على بعضه، والسنة على بعضه»[6].

ومن رحمة الإسلام بالعباد، ودقة معرفته بطبائع البشر، تدرجُهُ مع الأحداث والمناسبات والوقائع، كي لا يفجأ الطبائع البشرية، ويطالبها بتغيير أنماط حياتها التي اعتادها لفترة طويلة من الزمن، وهي ليست مهيأةً لتغيير كهذا الذي يريده الدين الجديد (الإسلام)... وعندما يتتبع الباحث المراحل المتتالية تترا في مكة والمدينة وما واكبها من قرآنٍ مكي ومدني، يجد الحاجةَ مسيسةً «إلى علم قرآني يلقي الضوءَ ساطعاً على هذه الخطوات، ويعين على تتبعها ورسمها بدقة بالغة، وهو علم الناسخ والمنسوخ الذي يمكننا أن نعدَّه ضرباً من ضروب التدرج في نزول الوحي، فمعرفتنا بما صح من وجوهه يتيسّرُ

(1) الشافعي، الرسالة، ت محمد أحمد شاكر، ص (107).
(2) المصدر نفسه، والآية من سورة الرعد، الآية: (39).
(3) سورة البقرة، الآية: (106).
(4) الشافعي، الرسالة، ص (107).
(5) المصدر نفسه، ص (108).
(6) المصدر نفسه، ص (113).

علينا تعيين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية، وتظهرنا على جانبٍ من حكمة الله في تربية الخلق، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي: وهو الله رب العالمين، لأنه يمحو ما يشاء ويثبت ويرفع حكماً، ويبدل آخر من غير أن يكون لأحدٍ من خلقه عمل في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتم النبيين نفسه»[1].

• الناسخ والمنسوخ وكلام أهل العلم فيه:

لمَّا كانت كلمة النسخ من المشترك اللفظي، فإنها أوجدت أرضاً للاختلاف والسجال الواسع، إذ النسخ يأتي بمعنى الإزالة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾[2]. ومنه: نسخت الشمس الظل، ونسخ الشيبُ الشبابَ[3]... وجاءت نسخ بمعنى التَّحويل «كتناسخ المواريث» لأن تناسخ المواريث هو تحويل الميراث من واحد إلى واحد[4]. وأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه «نسخت الكتاب» إذا نقلت ما فيه حاكياً للفظه وخطه. وقد أنكر بعض العلماء هذا الوجه الأخير محتجاً «بأن الناسخ لا يأتي بلفظ المنسوخ إنما يأتي بلفظ آخر»[5] واحتج السعدي لمن احتج بهذا الفهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مع قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝﴾[6] وما أم الكتاب في نظر السعدي ـ إلا اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون الذي لا يمسُّه إلا المطهرون» فقد أتى ناسخ القرآن فيه بلفظ المنسوخ فيما نزل من الوحي نجوماً من أم الكتاب»[7].

ووفقاً لما أوردنا من المعاني اللغوية المتعددة لكلمة النسخ، مع تشابكها مع المعنى الاصطلاحي دار الجدل بين العلماء غير أن الراجح أن الاستخدام القرآني لكلمة النسخ استعمل بمعنى الإزالة، لذا كان تعريف العلماء للنسخ هو «رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي» ـ هذا التعريف أدق تحديد اصطلاحي لهذه اللفظة، يتناسق في آن واحد مع لسان العرب الذي يرى النسخ إزالةً ورفعاً»[8].

---

(1) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (259).
(2) سورة الحج، الآية: (52).
(3) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة: نسخ.
(4) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (260)، وانظر الزركشي في البرهان، (2/ 29).
(5) المصدر نفسه.
(6) الزخرف، الآية: (4).
(7) انظر، الزركشي في البرهان (2)، وانظر الزمخشري في أساس البلاغة.
(8) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (261).

ولا أريد الإسهاب في موضوع الناسخ والمنسوخ حذراً من توجيه البحث توجيهاً أصولياً. إنما لا بد من الإشارة السريعة لأهمية الناسخ والمنسوخ عند المفسر الدارس للقرآن. لذا أرى مناسباً القول: إن أبا مسلم الأصبهاني لم ينكر النسخ جملة وتفصيلاً، إنما قال عن بعض الآيات التي جعلها بعضهم منسوخة «إنها مخصّصة» واحتج بقوله تعالى داحضاً رأي من قال بالنسخ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1] «وتجنب استخدام كلمة النسخ كي لا يبطل حكماً قرآنياً»[2]. غير أن العلماء راحوا يفرقون بين النسخ والتخصيص فعرفوا «التخصيص قصر العام على بعض أفراده»[3]. والحق أن النسخ يكون في حكم شرعي استقر لفترة طويلة أو مقيدة من الزمن ثم رُفع. والتخصيص يقع بوساطة الحس والعقل إلى جانب الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[4] خصص قولهﷺ: «لا قطع إلا في ربع دينار»[5]. أما النسخ «فالدليل فيه شرعي محض»... ويرى د. صبحي الصالح رحمه الله أن بعضهم قد توسع في النسخ حتى خلط خلطاً يجب تجنبهُ... ومبالغات لهم في هذا ما يجب أن يلجوها، وتحملات هم في غنى عنها[6].

وصفوة القول في الناسخ والمنسوخ:

«إن الأصل في آيات القرآن الإحكام لا النسخ، إلا أن يقوم دليل صريح على النسخ فلا مفر من الأخذ به. وما زال المحققون بالآيات التي قيل إنها منسوخة يبحثونها من وجوهها المختلفة حتى حصروا ما يصلح منها لدعوى النسخ في عدد قليل، وتعقب الآخرون هذا القليل نفسه فآثروا في طائفةٍ منه القول بالإحكام على القول بالنسخ، فالسيوطي مثلاً حصر دعوى النسخ في إحدى وعشرين آية على خلاف في بعضها[7]، ثم استثنى منها آيتي الاستئذان والقسمة فذكر أن الأصح فيهما أنهما محكمتان فصارت الآيات المنسوخة في نظره لا تزيد على تسع عشرة آية»[8].

في حين أن د. صبحي الصالح يقول: «ولولا خشية الاستطراد لتعقبناها فوجدنا

(1) سورة فصلت، الآية: (42).
(2) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (262).
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة المائدة، الآية: (38).
(5) انظر د. صبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن، ص (263).
(6) راجع د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (266، 267).
(7) السيوطي، الإتقان، (2/ 37، 38).
(8) المصدر السابق نفسه.

الصالح منها للنسخ لا يزيد على عشر فقط بيد أننا نفضّل أن نحيل القارىء على ما ذكره السيوطي لعله يكتشف من تلقاء نفسه»[1]. ويقيني أن ما يقوله د. صبحي الصالح قريب جداً من الصواب أو هو الصواب. لأنه «لا يمكن تصور النسخ إلا في حالات محدودة حيث يبرز النسخ حقيقةً لا يمكن إنكارُها كما في حالات نسخ التلاوة، وهذا نسخ حقيقي لا مجال لإنكاره»[2] نعم هذا ما قاله محمد فاروق النبهان صحيح ـ لكن قوله بنسخ التلاوة حالة لا يمكن إنكارُها: نكرها البعض وله فيها توجيه غير هين ولا سهل، إذ الأخبار الواردة بنسخ التلاوة أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا تُثبت قرآناً أصلاً. أما قول محمد فاروق النبهان «وهناك نسخ حكم سابق بحكم لاحق إذا تعذّر الجمع بين الحكمين»[3] فهو صحيح. وصحيح قوله أيضاً: «ولا أظنُّ أن توسيعَ دائرة النسخ في القرآن من الأمور المطلوبة، فالأصل أن يكون كل ما في القرآن خطاباً للمكلفين إلا ما ثبت نسخُ حكمِهِ»[4]. ومن الأهمية القول إن كثيراً من السجالات الحادة حول الناسخ والمنسوخ مردُّها إلى علم الكلام الذي ولّد نقاشاً في هذا الموضوع وفي غيره، دون أن يقدم لنا فائدة تذكر على الأقل في موضوع النسخ.

وإن كان من كلمة خاتمة في هذا الموضوع: «فإن النسخ موجود لكنه قليل، . . . وإن النسخ لا يقع إلا في الأوامر والنواهي، لأنه رفع لحكم شرعي بدليل شرعي. . . وأما الأخبار والغيبيات فلا يتصور وقوع النسخ فيها، لانعدام الفائدة، وعليه لا نسخ في قضايا الإيمان والعقيدة، وحوارات القرآن للمشركين والمخالفين، ومن أدخلها في النسخ فقرأ وأدخل فيه ما ليس منه.

• علم المحكم والمتشابه:

القرآن الكريم كتاب محكمٌ كلّه، ومتشابه كلُّه، إذا أردنا بالإحكام إتقانه وصِفتُه اللفظية والمعنوية، وأردنا بالتشابه تشابهه بإحكامه المتقن، وصفته البديعة، وبلاغته الفريدة. وجاءت كرائم الآيات مؤكدة لهذه المعاني، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[6] لذا يمكن

(1) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (274).
(2) محمد فاروق النبهان، مقدمة في الدراسات القرآنية، ص (209).
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.
(5) سورة هود، الآية: (1).
(6) سورة الزمر، الآية: (23).

القول: إن بحث المحكم والمتشابه الذي نريده لا علاقة له بهذين النصين إنما المحكم والمتشابه له علاقة بالنص القرآني: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[1].

وواضح علاقة المقابلة في هذه الآية الكريمة بين المحكم والمتشابه، وبين الراسخين في العلم والزائغة قلوبهم وعرّف بعضهم المحكم: «ما أحكمتَه بالأمر والنهي وبيان الحلال والحرام»[2]. وقيل هو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3]. وقيل في المحكم «هو ما لا يحتمل في التأويل إلا وجهاً واحداً»[4].

وأما المتشابه فأصله أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني، كما قال تعالى في وصف ثمار الجنة: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[5] أي متفق المناظر مختلف الطعوم، ويُقال للغامض متشابه... والمتشابه مثل المشكل لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره وشاكلَهُ وقيل فيه أقوال أكتفي بذكر بعضها: هو الذي يشبه بعضه بعضاً[6]...

وقيل هو: ما أُمرتَ أن تؤمن به، وتكِلَ علمَهُ إلى عالمه[7].

وقيل هو: ما لا يُدرى إلا بالتأويل. ولا بد من صرفه إليه كقوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[8] وقيل هو: «ما يَحتمل وجوهاً، والمحكم ما يَحتمل وجهاً واحداً». وقال بعضهم: «المتشابه: ما لا يستقل بنفسه إلا بردِّه إلى غيره»[9] ويلاحظ أن كل هذه الأقوال متقاربة.

● خلاصة في المحكم والمتشابه:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[10]. ثم

(1) سورة آل عمران، الآية: (7).
(2) الزركشي، البرهان، (2/ 68).
(3) سورة البقرة، الآية: (43).
(4) الزركشي البرهان، (2/ 69).
(5) سورة البقرة، الآية: (25).
(6) الزركشي، البرهان، (2/ 69).
(7) المصدر نفسه.
(8) سورة القمر، الآية: (14).
(9) الزركشي، البرهان، (2/ 70).
(10) سورة النحل، الآية: (44).

قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾[1]. والبيان على لسان رسوله فالذكر في الآية السابقة سنة رسولﷺ. ثم يكون البيان من خلال الراسخين بالعلم.

والمتشابه سمي كذلك لتداخل المعاني المتضمنة فيه «لأن المعاني إذا دقّتْ تداخلت، واشتبهت على من لا علم له بها، كالأشجار إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أمثالها واشتبهت؛ أي من لم يمعن النظر في البحث عن منبعث كلٍّ فنٍ منها، قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٤١﴾[2]، وهو على اشتباكه غير متشابه، وكذلك سياق معاني القرآن العزيز قد تتقارب المعاني ويتقدم الخطاب بعضُه على بعض، ويتأخر بعضه عن بعض؛ لحكمة الله في ترتيب الخطاب والوجود، فتشتبك المعاني، وتشكل إلا على أولي الألباب، فيُقال في هذا الفن متشابه بعضه ببعض. وأما المتشابه من القرآن العزيز فهو يشابه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز والبشارة والنذارة وكل ما جاء به وأنه من عند الله، فذمّ سبحانه الذين يتبعون ما تشابه منه عليهم افتتاناً وتضليلاً منهم بذلك يتبعون ما تشابه عليهم تناصراً وتعاضداً للفتنة والإضلال»[3].

من هذا يظهر «أن المحكم يغنينا عن البحث عنه لأن قراءتنا له كافية لإفهامنا المراد منه».

وخفاء المتشابه جدير أن يشغلنا بنص الشيء، لكي نعرفه، ثم نجتنبه فلا نتبعه كالذين في قلوبهم زيغ علماً «أن أكثر العلماء يذهبون إلى أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ويوجبون في الآية الوقف على اسم الجلالة»[4]، وهذه القراءة معتبرة، متواترة.

أما الراسخون بالعلم فقد انتهى علمهم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾[5]. غير أن عالماً كبيراً مثل أبي الحسن الأشعري كان يرى «الوقوف عند ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، فهم على ذلك يعلمون تأويل المتشابه»[6].

وانتصر أبو إسحاق الشيرازي لفهم الأشعري أبي الحسن، «ليس شيء استأثر الله

(1) سورة القيامة، الآية: (19).
(2) سورة الأنعام، الآية: (141).
(3) الزركشي، البرهان، (2/ 70 ـ 71).
(4) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص 282.
(5) سورة آل عمران، الآية: (7).
(6) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (282).

بعلمه، بل وقف العلماء عليه، لأن الله تعالى أوردَ هذا مدحاً للعلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة»[1].

● رأي أبي الراغب الأصفهاني:

كان أبو الراغب الأصفهاني القارىء الدارس المدقق في الكتاب الكريم يقف موقفاً وسطاً، فقسم المتشابه إلى ثلاثة أضرب: «**ضربٌ** لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك، **وضرب** للإنسان أسباب إلى معرفته كالألفاظ الغريبة، والأحكام المغلقة. **وضرب** متردِّد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم. وهو المشار إليه بقولهﷺ لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[2].

ويظهر أن اعتدالاً واضحاً في موقف الراغب من المحكم والمتشابه: «فذات الله وحقائق صفاته من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾[3].

وأما فواتح السور فقد بقيت من المتشابه المستغلق المعنى، وكانت آراء العلماء تتناول «حكمةَ وجودها لا جوهر معناها... والآيات المشكلة الواردة في صفات الله تعالى كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[4] هي أهم ما يتعلق بهذا الضرب من المتشابه الذي لا سبيل لأحد من البشر إلى الوقوف عليه، وقد أفردها ابن اللبان بكتاب سمّاه «رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات»[5].

وقد ذكر الرازي الحكمة من متشابه الصفات، فقال: «إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز، ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل، فكان الأَصلح أن يخاطَبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه، وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول: وهو الذي يُخاطبون به في أول الأمر ـ من باب المتشابه ـ والقسم الثاني: وهو

(1) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (282).
(2) السيوطي، الإتقان، (2/ 7، 8).
(3) سورة لقمان، الآية: (34).
(4) سورة طه، الآية: (5).
(5) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (283).

الذي يكشف عن الحق الصريح وهو المحكم»[1].

والحكمة من المتشابه إقامة الحجة للإنسان على عجزه وجهالته، والابتلاء والاختبار لصفاء العقول وإخلاص النفوس، والمحكم والمتشابه يدفع العالم إلى تحصيل العلوم الكثيرة لفهمه[2].

● وللعلماء في متشابه الصفات مذهبان:

«**الأول**: مذهب السلف: وهو الإيمان بهذه المتشابهات، وتفويض معرفتها إلى الله تعالى. سُئِل الإمام مالك عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني».

والثاني: مذهب الخلف، وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله، وينسب هذا المذهب إلى إمام الحرمين[3]، وجماعة من المتأخرين»[4].

● نماذج من الآيات القرآنية لتوضيح المذهبين من المتشابه:

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[5] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾[6]. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[7]. ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[8]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[9] ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[10]. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[11]. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[12].

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 324).
(2) وهناك حكم أخرى، راجعها في مناهل العرفان للزرقاني (1/ 325) وما بعدها.
(3) إمام الحرمين: هو عبد الملك بن أبي عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني الشافعي، العراقي، أبو المعالي، كان شيخ الغزالي، من أعلم أصحاب الشافعي، ت (478هـ).
(4) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص (284).
(5) سورة طه، الآية: (5).
(6) سورة الفجر، الآية: (22).
(7) سورة الأنعام، الآية: (18).
(8) سورة الزمر، الآية: (56).
(9) سورة الرحمٰن، الآية: (27).
(10) سورة الفتح، الآية: (10).
(11) سورة طه، الآية: (39).
(12) سورة آل عمران، الآية: (28).

● المعالجة والمناقشة:

«يتفق الجميع من سلف وخلف على أن ظاهر الاستواء على العرش هو الجلوس عليه مع التمكن والتميُّز، مستحيل لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقَه أو يحتاج إلى شيء منه، سواءً أكان مكاناً يحلُّ منه أم غيره، وكذلك اتفق السلف والخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله قطعاً، لأنه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه، وأثبت لنفسه الغنى عنهم، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] وقال: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2]. فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضاً[3].

وعلى كل حال منهج السلف يقوم على تنزيه الله عن هذه الظواهر المستحيلة، ويؤمنون بها بالغيب كما ذكرها الله، ويفوضون علم حقائقها إليه، أما الخلف فيحملون الاستواء على العلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة، ومجيء الله على مجيء أمره، وفوقيته على العلو لا في جهة، وجنبه على حقه، ووجهه على ذاته وعينُه على عنايته، ويدُه على قدرته، ونفسه على عفويته، وهكذا يؤولون كل ما ورد من رضىٰ الله وحبه وسخطه، وحيائه، بحملها على أقرب مجاز، ويقولون لا يراد من هذه الألفاظ إلا لازمها[4].

ولا بد في الختام من القول: إنَّ مسألة المحكم والمتشابه قد سَعَّرَتْ نار حربٍ ثقافية وعقيدية بين متكلمين ومحدثين، وسلف وخلف، والواقع لو أن العقول بحثت الأمر بأناة ووعي وتُقًى بعيداً عن نار العصبية لعذرَ كلُّ فريق الآخر، لأن النصوص محتملة، ولولا الاحتمال لكانت محكمة قاطعة، ولما جاز الخلاف في فهمهما... وقد ذكرتْ الحكمةُ من وجود المحتمل المتشابه في القرآن... وهذا لا يمنع من ترجيح رأيٍ على آخر وفق أدوات الترجيح المعتبرة... لذا كان علم المحكم والمتشابه، واحداً من العلوم التي ينبغي للمفسر أن يكون عالماً به كي يكون فهمه أقرب للسداد.

❀ ❀ ❀

(1) سورة الشورى، الآية: (11).
(2) سورة فاطر، الآية: (15).
(3) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 333).
(4) انظر السيوطي في الإتقان، (2/ 12).

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

التفسير والتأويل

- معنى التفسير لغة، واصطلاحاً.
- التفسير في زمن النبيﷺ وصحابته الكرام.
- النبيﷺ وفهمه للقرآن الكريم.
- تفاوت الصحابة في فهمهم القرآن.
- السنة المفسّرة للقرآن الكريم.
- مناقشة آراء الفريقين.
- التفسير في عهد الصحابة.
- وسائل الاجتهاد في التفسير عند الصحابة.
- التفسير في عهد التابعين.
- طبقة التابعين من أهل المدينة.
- طبقة أهل العراق.
- ترجمة القرآن الكريم.
- رأي الشاطبي في ترجمة القرآن.

obeikandl.com

obeikandl.com

التفسير والتأويل

بديهي أن لكل خطاب غاية، وإذا انعدمت الغايات أصبحت الأفعال عبثاً، ولوناً من ألوان اللهو غير المبرر، والخطاب يبغي غايةً من مخاطبه وهي غاية الإفهام والبيان كي يغرس في المخاطبين مفهوماً، وينتزع منهم آخر... قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[1]، .. وعلة الإرسال بلسان القوم كي يبلغ القومُ الفهم المراد من الخطاب.

وعلى ذلك فإن المعجزات التي أيّد الله تعالى رسلهُ كانت من جنس السائد من العلوم أو المعارف التي يمتلكُها قومهم، وإلّا لم تكن هذه المعجزات كافية لإثبات دعوى الرسالة لدى هؤلاء القوم المخاطبين... فكانت دعوة موسى مؤيَّدة بمعجزة العصا التي أكلت ثعابين السحرة، لتشكل خارقة قاطعة، وبرهاناً بيّناً لكل ذي بصيرة على صحة ادعائه النبوة، وإحياء عيسى للموتى وإبرائه الأكمه والأبرص شكلت معجزات وبراهين قاطعة على صحة ادعائه الرسالة والنبوة في وسط اجتماعي تقدم فيه علم الطب...

تأسيساً على ذلك، وانسجاماً مع نهج الرسل السابقين، كانت معجزة الرسول محمدﷺ مناسبة لما كان سائداً في قومه من معارف، إذ كانت اللغة بلغت مرتبةً عالية من صحة البيان وبلاغة الأداء، وفصاحة العبارة... فكان القرآن الكريم الكتاب المعجزة، المنزل بلغة العرب وأساليبها التي تمكنوا منها أحسن التمكن... جاء القرآن متحدياً لهم مخاطباً إياهم بلسانهم: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾[2] يظهر من النص السابق أن القرآن نزل بلغة العرب كي يفهَمَهُ العرب، وكي تقوم الحجة عليهم بعجزهم على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو بسورة، ... وعندما

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: (4).

(2) سورة يوسف، الآيتان: (1، 2).

ينزل القرآن بلسانهم مع تمكنهم من البيان، وسيطرتهم على اللغة، متحدياً أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور أو بسورة. فهذا ذروة التحدي، وهذا قمة الإعجاز.

ولكن معترضاً يقول: «ماذا يتغير فيما لو نزل القرآن بغير لغة العرب؟ فالكلام نفسه قد يُقال. ونرد على المعترض قولَه من وجهين:

الوجه الأول: من القرآن الكريم نفسه حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[1]. وكأني بالقرآن ـ وهو كلام الله، ومن أصدقُ من الله قيلاً ـ ينفي عن غير العربية، أياً كانت تلك اللغة قدرتها على تحمل الأمانة التي أشرنا إليها سابقاً، بدليل أن اللسان الأعجمي وبتقرير القرآن نفسه لا يستطيع التفصيل بينما أسند ذلك التفصيل للغة العرب، وما ظاهرة الإعجاز بكل صورها اللغوية والبيانية إلا دليل على صحة ما نذهب إليه.

والوجه الثاني: ما قرره علماء اللغات والألسنيون من أن لغة العرب من أكثر اللغات العالمية اتساعاً في التعبير وأقدرها على التعامل مع المعاني، وأساليب التعبير ففيها خير شاهد على ذلك. . . . مَنْ مِنَ اللغات حوى أو تعامل في أساليب التعبير بالمنطق نفسه الذي تعاملت به لغة العرب من مجاز وحقيقة، وتشبيه وكناية، واستعارة، وتقديم وتأخير وفصل ووصل وحذف ومضاف وتنوين وبناء، واستخدام الضمائر المنفصلة والمتصلة، المرفوعة منها والمنصوبة، فضلاً عن النعت والحال والتمييز، وعوامل الإعراب. . .؟ الخ»[2].

ومع التقدم المدني، واتساع الساحة العلمية وامتلائها بالغث والسمين، والخوض بالتفسير من قبل المسلمين وغيرهم، يكون لزاماً وعلى نحوٍ مستمر جلاء الأفهام، وإزاحة اللثام حول ما يجب أن يكون عليه التفسير والتأويل المتعلق بكتاب الله الكريم (القرآن).

• معنى التفسير لغة، واصطلاحاً:

لقد أوردت اللغة عدداً من المعاني لكلمة «تفسير» وذلك حسب السياقات أو الشيء الذي من أجله وضع اللفظ.

ورد في لسان العرب «الفسْر البيان، فسَر الشيء يُفسِرُه بالضم والكسر فسراً، وفسّرَه:

(1) سورة فصلت، الآية: (3).

(2) كامل موسى وعلي دحروج، كيف نفهم القرآن، ط، بيروت، (1412هـ ـ 1992م)، ص (58، 59).

أبانه، والتفسير مثله أي الإبانة، وقوله عزّ وجل: «وأحسن تفسيراً» الفسر كشف المُغطّى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل»[1].

قال ابن فارس: «فسر» الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه، من ذلك الفَسْرُ، يُقال فسَرْتُ الشيء، وفسَّرتُه، والفَسر والتّفسرة: نظر الطبيب إلى الماء وحكمه فيه»[2]. من هذا يبدو أن اللغة أرادت بالتفسير: الكشف عن المُغطَّى الحسي والمعنوي... وقد اشتُهِر لفظ التفسير مقروناً بالقرآن حتى أصبح التفسير علماً وفناً إذا أطلق كأن تقول: «اقرأ في التفسير» فيفهم منك أن تقرأ كتاباً كاشفاً لمعاني الكلمات أو التراكيب القرآنية.

• التفسير في الاصطلاح:

تعددت التعاريف الاصطلاحية لتفسير القرآن الكريم، وهذا التعدد والاختلاف في التعاريف يرجع إلى الأسس التي انطلق منها كل تعريف «فيرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن أن تشبه العلوم العقلية»[3] ويرى بعضهم «أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد فيتكلف له التعريف، فيذكر علوماً أخرى يحتاج إليها في فهم القرآن، كاللغة والصرف والنحو والقراءات وغير ذلك»[4].

والحق إن التعاريف كثيرة مشتركة متداخلة، منها ما ذكره الزركشي «هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيه، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسَّرها»[5].

ولعل التعريف الذي نقله السيوطي عن أبي حيان أشمل التعاريف وأحسنها فالتفسير: «علم يبحث عن كيفية النطق بالقرآن ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، فسر، (5/ 55)، ط، دار صادر.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، (4/ 504)، مادة «فسر». ط (1)، دار الجيل، (1411هـ ـ 1991م).

(3) كامل موسى وعلي دحروج، كيف نفهم القرآن: دراسة في المذاهب التفسيرية واتجاهاتها، ص (61).

(4) المصدر نفسه.

(5) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (2/ 148).

التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك»[1]. وعرّفه الزركشي بأنه علم: يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمدﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[2].

ونقل السيوطي في التحبير تعريفاً آخر عزاه إلى أبي حيان وهو «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن العزيز من حيث دلالته على مراده بحسب الطاقة البشرية» ويتناول التفسير ما يتعلق بالرواية والتأويل، أي ما يتعلق بالدراية»[3]..

ناقش محمد حسين الذهبي هذا التعريف بقوله: «والناظر لأول وهلة في هذين التفريقين الأخيرين يظن أن علم القراءات، وعلم الرسم لا يدخلان في علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه؛ وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءات والقراءتين، كقراءة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾[4]، بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ ﴿مَلِكاً كبيراً﴾ بفتح الميم وكسر اللام. وكقراءة ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتسكين فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ (يَطَّهَّرن)[5] بالتشديد كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآني في المصحف، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَمْشِي سَوِيًّا﴾[6] بوصل (أمَّن)، يغاير في المعنى ﴿أَمَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[7] بفصلها فإن المعنى تفيد بل دون الموصولة»[8].

وعلى كل حال فإن التعاريف عامةً تتفق أن علم التفسير يبحث عن مراد الله تعالى بعد بذل الوسع من البشر الذين توفرت فيهم الأهلية لفهم مراد الله سبحانه.

التفسير في زمن النبيﷺ وصحابته الكرام

● **تمهيد:**

العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، والقرآن نزل بلغتهم، والشعر كان منتشراً بينهم، والأمثال يتداولونها مستقاة من تجاربهم في الحياة.

---

(1) السيوطي، التحبير في علم التفسير، ص (37، 38).
(2) السيوطي، الإتقان، (2/ 174).
(3) السيوطي، التحبير في علم التفسير، ص (37).
(4) سورة الإنسان، الآية: (4).
(5) سورة البقرة، الآية: (222).
(6) سورة تبارك، الآية: (22).
(7) سورة النساء، الآية: (109).
(8) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (2/ 15)، ط إحياء التراث العربي.

وكلامهم في أصله يشتمل على الحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة، والكناية، والتصريح والإطناب والإيجاز... ومعجزة سيدنا رسول اللهﷺ مثل باقي المعجزات جاءت مناسبة لحال العرب (القوم الذين خاطبهم القرآن، بلغتهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾[1]. وما قيل من أن القرآن حوى ألفاظاً أو كلماتٍ ليست عربية فهذا إن وجد فهو قليل من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا الكلام القليل أصبح عربياً بحكم الاستعمال، ولأنه جرى على سنن لغة العرب. على ما قاله ابن فارس ما كان من الكلام على سنن العرب فهو من كلام العرب وإن لم تقلْهُ العرب.

• النبيﷺ وفهمه للقرآن الكريم:

النبي واحدٌ من العرب، تنزّل عليه القرآن بلغته (التي هي لغة قومه العرب): ولما كان هذا الكتاب معجزةً للنبيﷺ وحجةً له على غيره يصدق ادعائه الرسالة والنبوة فكان «طبيعياً أن يفهم النبيﷺ القرآن جملة وتفصيلاً، بعد أن تكفّل الله تعالى له بالحفظ والبيان ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾[2]... كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبيﷺ القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلاً ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة، ولا واردة، فهذا غير ميسور بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر، والرجوع إلى النبيﷺ فيما يُشكِلُ عليهم فهمُهُ! وذلك لأن القرآن فيه المُجمَل والمشكل والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد من معرفته من أمور أخرى يُرجَعُ إليها»[3]. صحيح إن الصحابة كانوا يفهمون الكثير من القرآن، ولكنه كان يشكل عند بعضهم فحادثة ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾[4] أحد الشواهد على ذلك، ثم إن بعض آيات القرآن عامة بحاجة إلى تخصيص، لذا فإن سؤال الصحابة النبيﷺ كان يكشف لهم عن التخصيص، وعن بيان المجمل، وتوضيح المشكل، والمتشابه وغير ذلك... في حين كان النبي مسدداً بالوحي بتبليغ نصّ القرآن، وفهمه القرآن، لذا كان النبيﷺ محيطاً بكل تفسير وفهم للقرآن في محكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه... الخ، لأن الله تعالى اختصه بالرسالة وعليه أن يبلغها الناس فآتاه الله

(1) سورة إبراهيم، الآية: (4).
(2) سورة القيامة، الآيات: (17 ـ 19).
(3) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (1/ 33).
(4) سورة البقرة، الآية: (187).

القرآن وفهمهُ، لذا كان كلام رسول اللهﷺ في تفسيره القرآن، أو تخصيصه لعامه، أو تقييده لمطلقه من الدين وحجة على العباد، إن لم يعملوا فيه كانوا مخالفين لهدي الله ورسوله.

• تفاوت الصحابة في فهمهم القرآن:

صحيح أن جيل الصحابة الكرام مشهود له على العموم بالخيرية المطلقة، خيرية الاستقامة على الدين، والخيرية في فهم الدين، بيد أن الباحث في تاريخ الصحابة ﷺ يجد تفاوتاً بين هذا الصحابي وذاك في فهم معاني القرآن. بل قد يكون هذا النص غامضاً أو تلك الكلمة من النص غامضة يغيب عنه معناها وفهمها، ويبين أحدهم له. والسبب أن الصحابي الواحد قد تغيب عنه مفردة من مفردات العربية الكثيرة العدد، غير أن العربية بمفرداتها جميعاً لا تغيب عن مجموع العرب من الصحابة الفطناء، أما مجموع العربية فقد تغيب عن الصحابي الواحد.

أخرج أبو عبيدة في الفضائل عن أنس، أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾[1] فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟» ثم رجع إلى نفسه، فقال: «إن هذا لهو التكلف يا عمر»[2]. وما رُويَ من أن عمر كان على المنبر فقرأ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[3] ثم سأل عن معنى التخوّف، فقال له رجل من هذيل: التخوّف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تخوَّف الرحل منها تامكاً قَرِداً كما تخوَّف عودَ النبعة السَّفِنُ[4]

عندئذٍ قال عمر مقولته المشهورة المذكِّرة المنبِّهة لأهمية حفظ أشعار العرب لفهم الكتاب الكريم: «أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم»[5].

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنتُ لا أدري ما فاطر السمٰوات حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فطرتُها، والآخر يقول: أنا ابتدأتُها»[6].

---

(1) سورة عبس، الآية: (31).
(2) الشاطبي، الموافقات، (2/ 87).
(3) سورة النحل، الآية: (47).
(4) الشاطبي، الموافقات، (2/ 87، 88). والتامك: السنام. القَرِد: الذي تجعّد شعرُه، فكان كأنّه وقاية للسنام. النبع: شجر للقسي والسهام. والسفِن: كل ما ينحت به غيرُه.
(5) الشاطبي، الموافقات، (2/ 88).
(6) السيوطي، الإتقان، (2/ 113).

من هذا يظهر أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا على سويّة واحدة في فهم القرآن وبيان معانيه، «فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملماً بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبيﷺ فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره. أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً»[1].

هذا إذا تذكرنا أن الرسولﷺ كان يعلّمُ الصحابة التلاوة والفهم ويوجّهُ فهمهم ويصحح إدراكهم لدلالات القرآن ومقاصده «وكان النبيﷺ يبيّن المجمل، ويميّزُ الناسخ من المنسوخ، ويعرّفه أصحابُه فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات، ومقتضى الحال منها منقولاً عنه». وفي هذا بيان أن معرفة اللغة العربية ليست كافية لمعرفة معاني القرآن الكريم، بل كانوا محتاجين إلى توجيه الرسولﷺ لفهومهم.

ويمكننا أن نوجز القول: إن تفسير القرآن في عهد الرسولﷺ والصحابة كان يستمد مصادره من:

1 ـ القرآن الكريم: أي ما ورد من آيات القرآن المفسِرّة لآيات أخرى، لأن القرآن الكريم قد يُجمِل في مكان ويُبَيِّنُ في مكان آخر، وما جاء مطلقاً قد يقيد في مكان ثانٍ، وما كان عاماً قد يخصص في آية أخرى وهكذا. ولنتمعّن بعض الأمثلة.

قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[2]... والمعنى أن الناس لا يتركون دون فتنة: أي ابتلاء واختبار لأجل قولهم آمنّا بل إذا قالوا: آمنّا فتنوا: أي امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمنا من غير الصادق.

يقول الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أُخَر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾[4]. وهناك آيات أُخر استشهد بها الشنقيطي على أنها آيات

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون (1/ 36).
(2) سورة العنكبوت، الآيتان: (1، 2).
(3) سورة البقرة، الآية: (214).
(4) سورة آل عمران، الآية: (142).

موضحة لآية العنكبوت[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[2] فسرتها الآية في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[3].

ومن تفسير القرآن حمل المطلق على المقيد، «ما نقله الغزالي عن أكثر الشافعية من حمل المطلق على المقيد في صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثل له بآية الوضوء والتيمم، فإن الأيدي مقيدة في الوضوء بالغاية في قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[4] ومطلقة في التيمم في قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ فقيدت بالتيمم بالمرافق أيضاً[5].

ومن الأدلة على تفسير القرآن حمل العام على الخاص:

قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[6] فالصلاة الوسطى مخصصة من عموم الصلاة على رأي من قال بهذا الرأي.

من تفسير القرآن بالقرآن الجمع بين ما يُتوهَّم أنه متعارض أو متناقض «كخلق آدم من تراب في بعض الآيات، ومن طين في غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التي مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه.

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ وتتفق في المعنى، فقراءة ابن مسعود ﷺ «أو يكون لك بيت من ذهب» تفسر لفظ الزخرف في القراءة المشهورة ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[7].

كذلك فإن إحدى القراءات تساعد على فهم قراءة أخرى وذلك مثل قوله تعالى في آية اختلف اللفظ واتفق المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾[8]. فسرتها القراءة الأخرى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله﴾ لأن السعي عبارة

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (4/ 229). بيروت، دار إحياء التراث، ط (1996).

(2) سورة البقرة، الآية: (37).

(3) سورة الأعراف، الآية: (23). انظر التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، (1/ 38).

(4) سورة المائدة، الآية: (6).

(5) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (1/ 38، 39).

(6) سورة البقرة، الآية: (238).

(7) سورة الإسراء، الآية: (93).

(8) سورة الجمعة، الآية: (9).

عن المشي السريع، وهو وإن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب»[1].

• المصدر الثاني لتفسير القرآن: النبيﷺ:

من المعلوم أن القرآن تنزل على الرسول محمدﷺ من الله تعالى، وأوحى إلى رسوله فهم القرآن، لذا فإن الصحابي «إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول اللهﷺ في تفسيرها فيبين له ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان كما أخبر الله بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وكما نبه على ذلك رسول اللهﷺ فيما رواه أبو داود بسنده أن الرسولﷺ قال: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه...**»[3].

كما أن السنة النبوية حفلت بالكثير من النصوص النبوية المفسّرة لبعض آي القرآن مثل: ما رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود قال، قال رسول اللهﷺ: «**صلاة الوسطى صلاة العصر**»[4].

وأخرج البخاري عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لا يظلم نفسَهُ؟ قال: «**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5]؟ إنما هو الشرك**»[6].

ومن المناسب التنويه، أن السنة المفسِّرة وضع فيها ما ليس منها، مثل ما أصاب الأحاديث الأخرى، وقد فصل العلماء ذلك، وردَّ المحدثون الروايات الكاذبة، وأشاروا إلى الصحيحة منها، وهذا معروف في صحاح السنة.

ويمكن القول: إن الرسولﷺ بيَّن للصحابة ما أشكل عليهم فهمُه لأنه مبلّغ معلم، ووظيفته البيان، علماً أن العرب كانت بوجه عام تعرف معاني القرآن، الذي نزل بلغتها وهذا لا يعني أن يوجد إشكال في بعض الأخبار حول المراد من آية من هذه الآيات ـ وواضح من الأمثلة السابقة أن الرسولﷺ أرشد إلى الآيات المفسرة إلى آيات أخرى.

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص (40).
(2) سورة النحل، الآية: (44).
(3) أخرجه أبو داود في (الحديث: 4436).
(4) أخرجه مسلم في (الحديث: 1425)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 181).
(5) سورة لقمان، الآية: (13).
(6) أخرجه البخاري في (الحديث: 4776).

• السنة المفسّرة للقرآن الكريم:

لقد سقنا سابقاً بيان الرسولﷺ في تحديده الصلاة الوسطى، فقال في الصلاة الوسطى صلاة العصر.

ومن السنة المفسِّرة لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾[1] هو ما أخرجه البخاري بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما يغيض في الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»[2].

ويلاحظ من هذه البيانات النبوية أن السنة جاءت مفسرة للقرآن إذا بينت المقصود بالصلاة الوسطى، وأرشدت إلى المقصود من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ وعلاقة ذلك بالغيب، ومن السنة المفسّرة لكتاب الله الكريم، ما أخرجه الترمذي عن علي قال: سألت رسول اللهﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: «**يوم النحر**»[3].

وجليّ للقارىء أن هذه النصوص النبوية تبين بألفاظ نبوية مفسِّرة لآيات قرآنية، وفي حين كانت الإرشادات النبوية السابقة تشير إلى الآيات القرآنية المفسِّرة لآيات قرآنية أخرى.

والأمر الذي ينبغي الإشارة إليه أن بعض العلماء كان يقول إن الرسولﷺ بيَّن للصحابة كل معاني القرآن واستدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4] «والبيان في الآية يتناول بيان معاني القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه»[5].

واستدلوا بما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول اللهﷺ قُبضَ قبل أن يُفسِرها» وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يُفسِر لهم كلّ ما نزل وأنه إنما لم يُفسِر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه»[6].

وأبرز القائلين بتفسير الرسول لكل معاني القرآن ابن تيمية وآخرون»[7].

---

(1) سورة الرعد، الآية: (8).
(2) أخرجه البخاري في (الحديث: 4697).
(3) أخرجه الترمذي في (الحديث: 3088).
(4) سورة النحل، الآية: (44).
(5) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (1/ 49).
(6) المصدر نفسه، (1/ 50).
(7) المصدر نفسه.

وذهب فريق آخر إلى القول إن النبيﷺ لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن، واستدلوا بما أخرجه البزار عن عائشة قالت: ما كان رسول اللهﷺ يُفسِر شيئاً من القرآن إلّا آياً بعدد، علّمهُ إياهن جبريل».

واستدلوا بقولهم: «لو كان رسول اللهﷺ بيّن لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء له بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلِّمْهُ التأويل**» فائدة لأنه يلزم من بيان رسول اللهﷺ لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله فكيف يخص ابن عباس بهذا الدعاء»[1].

• مناقشة آراء الفريقين:

واضح أن كلاً من الفريقين غالى فيما ذهب إليه، فقول الفريق الأول مستدلاً بآية سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾ تشير إلى أن الرسولﷺ بيَّن ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه ما أشكل منها، وما لم يُشكل»[2].

وأما استدلالهم بأن الرسول قُبض ولم يُفسِّرْ آية الربا لا يدل على أنهﷺ كان يبيّن لهم كل معاني القرآن، فلعل هذه الآية مما أشكل على الصحابة، فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبيﷺ شأن غيرها من مشكلات القرآن»[3].

أما أدلة الفريق الثاني الذي نفى تفسير الرسول لكل معاني القرآن» وأثبت أن الرسول لم يُفسر إلا آيات قليلة معدودة، فباطل أيضاً لأن الحديث الذي أخرجه البزار عن عائشة منكر غريب، لأن راوي الحديث محمد بن جعفر الزبيري مطعون فيه، قال البخاري عنه: «لا يُتابع في حديثه»[4].

وأما استدلالهم بدعاء الرسول لابن عباس بأن «يعلمه الله التأويل» فلا يصح لأن دعاء رسول اللهﷺ لابن عباس لا يفيد أن الرسول لم يبين إلا القليل، وإن كان يوحي أن الرسول لم يُبيّن كل معاني القرآن»[5].

والحق أن الرسولﷺ بيَّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يُبيّن كل معاني القرآن، وأن الرسولﷺ لم يُفسِّر للصحابة ما يرجع فهمه إلى

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون (1/ 51).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، (1/ 52).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه، (1/ 53).

معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسرْ لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذي لا يُعذْرُ أحد بجهله، . . . ولم يُفسِر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح وغير ذلك من كل ما يجري مجرى الغيوب التي لم يُطلِع الله عليها نبيه»[1].

• التفسير في عهد الصحابة:

الصحابة عرب فصحاء خُلّص، وكانوا يجتهدون الرأي في فهم القرآن ما لم يتيسر لهم نقل عن رسول الله ﷺ أو لم يجدوا آيةً قرآنية تفسر أخرى.

أما ما ورد من النصوص القرآنية التي تحتاج إلى لغة عربية لفهمها فكان ذلك ميسراً للصحابة دونما جهد لأنهم «عرب خُلّص يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول، ويعرفون الألفاظ العربية في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب، كما يقول عمر رضي الله عنه[2].

• وسائل الاجتهاد في التفسير عند الصحابة:

الاجتهاد هو بذل واسع في فهم النصوص، والاجتهاد له وسائلُه التي يستعان بها لولوج بابه ومن أهم وسائل الصحابة:

1 ـ معرفة اللغة العربية وأسرارها ـ ومعرفة عادات العرب ـ ومعرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن ـ قوة الفهم، وسعة الإدراك.

فمعرفة العربية تساعد على فهم الآيات لأنها نزلت عربية البيان، ومعرفة العادات تعين على فهم الآيات ذات الصلة بالعادات، وذلك مثل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[4]. لا يمكن فهمه إلّا لمن عرف عادات العرب.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى تساعد على فهم الآيات النازلة بصددهم، وتعين على الرد عليهم. وأما قوة الفهم وسعة الإدراك فهذه نعمة ينعم الله على من يشاء من عباده، وهنا تفاوت الصحابة بمعرفتهم بالقرآن لتفاوتهم في امتلاك الأدوات المساعدة على الاجتهاد.

وقد اشتهر بعض المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (1/ 54).
(2) المصدر نفسه، (1/ 58).
(3) سورة التوبة، الآية: (37).
(4) سورة البقرة، الآية: (189).

وهناك من الصحابة من تكلم في التفسير لم تكن لهم الشهرة التي كانت للصحابة العشرة الأوائل في التفسير، كأنس بن مالك، وأبي هريرة وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة ﷺ. وأما أكثر الصحابة تفسيراً، ورواية عنه في مجال تفسير القرآن فهو علي ﷺ «والسبب راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يُفسر لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن، وذلك ناشئٌ عن اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية»[1].

• التفسير في عهد التابعين:

إن مرحلة التفسير الأولى التي بدأت في عهد الرسول ﷺ والصحابة ﷺ هي التي أسست لعلم التفسير، وهذه الفترة انتهت «بانصرام عهد الصحابة» لتفتح الباب لعهد جديد، ومرحلة جديدة من مراحل تفسير القرآن، وهذه المرة عن التابعين ﷺ الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم، وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء بعض ما خفي من كتاب الله اشتهر أيضاً بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا في التفسير، ووضحوا لمعاصريهم خفيّ معانيه»[2].

وكان هؤلاء التابعون منتشرين في الأمصار الإسلامية «فنشأت في مكة طبقة من المفسرين، وفي المدينة طبقة ثانية، وفي العراق ثالثة.

طبقة أهل مكة: «وكانوا أعلمَ الناس بالتفسير على ما نقله السيوطي عن ابن تيمية أنه قال: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس».

أما «مجاهد بن جبر»[3] فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس، ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أقطاب العلم والدين»[4].

وأما «عطاء بن أبي رباح»[5] و«سعيد بن جبير»[6] فقد كانَ كلٌ منهما ثقةً ثبتاً في الرواية عن ابن عباس، وقال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير،

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (1/ 64).
(2) الإتقان، (2/ 1233). وانظر مقدمة ابن تيمية (61).
(3) مجاهد بن جبر ت (104هـ).
(4) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 26).
(5) عطاء بن رباح ت (114هـ).
(6) سعيد بن جبير ت (95هـ).

ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال قتادة: أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالمناسك أو بالتفسير. وقال أبو حنيفة: ما لقيتُ أحداً أفضل من عطاء، وأما عكرمة مولى ابن عباس: فقد قال العلامة الشعبي: «ما بقي أحدٌ أعلمَ بكتاب الله من عِكْرِمَة»[1].

وقال عِكرمة: كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل[2]، ويعلمني القرآن والسنن». ومنهم طاووس ابن كيسان الحميري[3]:

• طبقة التابعين من أهل المدينة:

زيد بن أسلم[4]: وأخد عنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة. ومنهم أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي[5] ـ ومنهم محمد بن كعب القرظي[6] ـ الذي قال فيه ابن عودة: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بتأويل القرآن من القرظي».

• طبقة أهل العراق:

ومنهم مسروق بن الأجدع[7]، ومنهم قتادة بن دعامة السدوسي[8]، ومنهم التابعي المشهور المعروف بسعة علمه، وشدة تقواه وورعه أبو سعيد الحسن البصري، قال ابن سعد فيه: «كان ثقةً مأموناً وعالماً جليلاً، وفصيحاً جميلاً، وتقياً نقياً حتى قيل إنه سيد التابعين»[9].

ومنهم عطاء بن أبي مسلم الخراساني[10].

• تطوّر الأوضاع التفسيرية:

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (1/ 26 ـ 27).
(2) الكبل: القيد، القاموس المحيط: كبل.
(3) طاووس بن كيسان الحميري، ت (106هـ).
(4) زيد بن أسلم ت (136هـ).
(5) رفيع بن مهران الرياحي ت (90هـ).
(6) محمد بن كعب القرظي، ت (120هـ).
(7) مسروق بن الأجدع ت (63هـ).
(8) قتادة بن دعامة ت (118هـ).
(9) الزرقاني، مناهل العرفان (1/ 28).
(10) عطاء بن أبي مسلم ت (135هـ).

هؤلاء أهم أعلام التابعين من المفسرين العلماء، وقد استمدوا علومهم من القرآن من الصحابة الكرام ﷺ. وعن التابعين أخذ تابعو التابعين، وهكذا حتى وصل إلينا وبهذا صنف العلماء التفاسير كما فعل سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، فكان ذلك توطئة أو إرهاصاً لظهور عالم مفسر كبير هو محمد بن جرير الطبري، الذي يوشك المفسرون جميعاً من بعده أن يكونوا عالة عليه ـ وإن كان محمد الفاضل بن عاشور يرى أن الذين يجعلون محمد بن جرير الطبري نتاج حركة التطور التفسيري فإنهم «يقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني، لأن تفسير ابن جرير الطبري أُلِفَ في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع، والحال أن الحلقة التي يتم بها اتصال السلسلة، وضاعت عن الكاتبين المحدثين في تاريخ التفسير من المستشرقين، وغير المستشرقين، هي حلقة إفريقية تونسية، بالوقوف عليها يتضح كيف تطوّر فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مديناً له بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم.

وإنما نعني بهذا تفسيراً جليلاً من صميم آثار القرن الثاني وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق أُلِفَ بالقيروان وروي فيها وبقيت نسخته الوحيدة بين تونس والقيروان، وهو الذي يعتبر مؤسس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري، التي سار عليها بعده ابن جرير الطبري واشتهر بها هو تفسير «يحيى بن سلام التميمي البصري الإفريقي» المتوفى سنة (200هـ) ـ وهو تفسير يقع في ثلاثين جزءاً من التجزئة القديمة أي في ثلاثة مجلدات ضخمة، مبني على إيراد الأخبار مسندة ثم تعقبها بالنقد والاختيار، فبعد أن يورد الأخبار المروية مفتتحاً بقوله: «قال يحيى» ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوي، والتخريج الإعرابي، ويتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التي تتحاشى وإياه، مشيراً إلى اختياراته في القراءة بما يقتضي أن له رواية ـ أو طريقاً ـ لا يبعد أن تكون راجعة إلى قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري لأن يحيى بن سلام بصري النشأة... وقد نص ابن الجزري على أن هذا الكتاب سُمِعَ من مؤلفه بإفريقية وشُهِد بأنه كتاب ليس لأحد من المتقدمين مثله»[1].

وإذا سلَّمنا برأي ابن عاشور: أمكن القول إن يحيى بن سلام التميمي البصري

(1) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، تونس، دار سحنون، ط (1998 ـ 1999) ص (34، 35، 36).

مؤسس طريقة التفسير الأثري النظري في القرن الثاني، ومحمد بن جرير الطبري هو ربيب تلك الطريقة وثمرة ذلك الغراس»[1] وهو من الأئمة المجتهدين في الفقه والحديث، . . . وشارك البخاري في كثير من شيوخه، وهو من رجال التاريخ والمعرفة الواسعة المفننة بالأحداث والرجال.

وكان لتفسير الطبري الشهرة الواسعة إذ نقل إلى الفارسية في القرن الرابع، واعتنى به دارسو المشرقيات اعتناءً زائداً، لأن هذا التفسير قد اكتسب على يد مؤلفه الطبري «صبغةً جديدة بحق، لعلها هي التي سمحت له أن يختار الدلالة على صيغة كلمة ما كان يختارُها متعاطو التفسير من قبله، وهي كلمة التأويل فسمّي تفسيرُه باسم «جامع البيان عن تأويل القرآن» والتزم كلمة التأويل في ترجمة كل فصل من فصوله»[2]. وحاول بمنهجية علمية جادة التوفيق بين المعقول والمنقول بنقد الرواية ومقارنتها مع أشباهها أو مع ما يتقاطع معها.

وهكذا شق علم التفسير طريقه، وهذا الطريق كان له منعطفات ووديان وصعدات. خاصة أن التفسير بالمأثور لقي نقداً شديداً عبر مسيرة التفسير لاختلاط مصطلح الأثر بالأخبار الواهية، أو بما ورد من واهنات أهل الكتاب، غير أن بعض العلماء انبرى بقوة للذَّود عنه ممحصاً ومنقراً وأبرزهم الإمام البخاري الذي عاصر الطبري، الذي شاركه ببعض أشياخه كما ذكرنا سابقاً.

راح البخاري العالم الناقد البصير يتحرى ألفاظ اللغة وصحة استعمالاتها وأصولها الاشتقاقية، وينقر عن صحة الأقوال المنقولة المنسوبة إلى الرسول ﷺ والصحابة ﷺ، متخذاً علم الإسناد وسيلة إلى ذلك. وألَّف البخاري على هذا المنهج تفسيراً مستقلاً لم يصل إلينا هو «التفسير الكبير». . . ولكن الذي وصل إلينا من عمل البخاري القسم المتضمن للتفسيرات النبوية، وآراء وأقوال الصحابة، ونقولاتهم عن الرسول ﷺ وهذا القسم أودعه البخاري في كتابه «الجامع الصحيح». وبهذا الصنع مهَّد البخاري لأهل الأثر والنظر الطريق للتقارب. . . إذْ حصر الأحاديث المعتد بها في التفسير فحكم على ما وراءها بالطرح وعدم الاعتداد»[3].

ثم جاءت على إثر هذه المسيرة حركة اعتزالية فكرية ثقافية جارفة أفرزت علماء ومفسرين أسهموا في دفع التفسير والتأويل قدماً «ولكن نزعة من العصبية الغالية قد أوغلت

(1) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، ص (39).
(2) المصدر نفسه، ص (40).
(3) المصدر نفسه، ص (52).

بهم في مسالك التعسف كلما كانت المحامل الواضحة التي يستدعيها السياق ويقتضيها التركيب مخالفةً لمذاهبهم الكلامية في المعاني الاعتقادية، ونزعة من الغرور الذميم أركبتهم مركب ادّعاء أن آلة التأويل وقف عليهم، لا يحسن غيرهم أن يتعاطاها»[1].

وما من حركة ثقافية يطيش بها الغرور، أو تتقاذفها أهواء الاستبداد بالرأي إلّا وتحوي في داخلها بذور فنائها وضعفها... ومصداقاً لذلك:

«فإنه لم يكد لواء النبوغ في تقرير نكت البلاغة القرآنية يعقد على مجالس الشريف الرضي المتوفّى في (436هـ) حتى نجم في أفق أهل السنة فتى شافعي أشعري من عباقرة علماء العربية هو عبد القاهر بن عبد الرحمٰن الجرجاني المتوفى سنة (471هـ) تمرّس بكتب أبي علي الفارسي وتخرّج على طريقته في النحو»[2] ثم تسلق سلم البيان والبلاغة ليكون مبلور نظرية الإعجاز بجدارة ـ مستثمراً ما قاله المعتزلة والباقلاني مخرجاً لنا كتابه دلائل الإعجاز «فبين فيه جهات الحسن البلاغي وعلله، وضبطها في قوالب محكمة من التعبير فجاء عمله عملاً أساسياً منهجياً»[3].

ثم كان من الوالجين باب التأويل والبلاغة والتفسير: الإمام الزمخشري، والقاضي أبو محمد بن عبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي. وقد أنتج كلٌ منهما أعمالاً فائقة النفع في البلاغة والتأويل القرآني: تفسير ابن عطية، وكشاف الزمخشري.

وقد كان تفسير ابن عطية «يمثل صولة الغالب العنيد على المنهزم المتراجع»[4]. والمقصود غلبة السنة على الاعتزال،... ولقد قَوِيَ تفسير ابن عطية بما أضيف إليه من عاملَيْ قوة بيانية يرجعان إلى شبابه وعروبته، فإن الشباب أفادَه قريحة متقدة ونظرة حادة، يتناول بهما موضوعه في قوة وسرعة ومتانة وإلهام»[5]. في حين كان تفسير الزمخشري الكشاف اتسم «بالشيخوخة والعجمة، فإن أسلوبه البياني قد جاء متثاقلاً كزاً ترهقُه كلفة الصناعة مع نبوة الطبع، ولذلك فلا يدع أن يوصف تفسيره بأنه «محرر» لا سيما وقد دفع الشبه، وخلّص الحقائق، وحرّر ما هو محتاج إلى التحرير، وقد نوّه بذلك في مقدمته»[6].

وهكذا تسير حركة التفسير قدماً حتى وصلنا إلى القرن الرابع، إذ بدأت حدة الاعتزال

---

(1) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، ص (53).
(2) المصدر نفسه، ص (58).
(3) المصدر نفسه، ص (59).
(4) المصدر نفسه، ص (75).
(5) المصدر نفسه، ص (75).
(6) المصدر نفسه، ص (75، 76).

تخف وتنكسر بظهور أحد الأئمة المشاهير الذي أسس لأصول فهم الإسلام متفقاً مع الحكمة الصافية المهذبة من الشطط، عندما أُلِّفَ بين أهل الفقه وأهل الحديث وأهل التصوف ـ فما كدنا أن نصل إلى القرن السادس الهجري إلا وأصبحت الثقافة الإسلامية راسخة القواعد، متينة البنيان، «تتراص فيه المعارف الحكمية والمعارف الدينية، وتشد فيه الفلسفة الشرعية على أنها خادمة لها، كما هو مذهب الأشعري، لا على أنها مسيطرة عليها كما كان مذهب المعتزلة»[1].

إن ذلك أذن بمولد مفسّر عظيم: إنه الإمام الرازي، وكانت طريقته تقوم على إدراك الرازي «ما في القرآن من أسرار حكمية، وبث ما تضمنهُ من مطالب فلسفية وعلوم طبيعية، وإنما هي طريقته الكلامية المختارة المتبعة لمنهج الغزالي، وإمام الحرمين والباقلاني وأبي إسحق الإسفراييني، والإمام أبي الحسن الأشعري»[2].

ثم تتالت التفاسير القرآنية الأخرى كتفسير البيضاوي الذي درج معتمداً على تفسيرين عظيمين هما «الكشاف» للزمخشري، و«التفسير الكبير» للفخر الرازي فجعل اعتماده في بيان الألفاظ والتراكيب وتحليل المباني لاستخراج نكت المعاني على تفسير الكشاف، واعتمد في إبراز روح الحكمة القرآنية وعرض نظرياتها من نواحي الفلسفة وأصول الدين وأصول الفقه على المرجع في ذلك وهو تفسير الإمام الرازي»[3].

وعندما نقول: إن البيضاوي اعتمد على تفسيري «الكشاف والكبير» لا يعني هذا أنه قلدهما دون أن يأتي بجديد، بل إن قيمة تفسير البيضاوي تأتي من كونه اعتمد الاختصار، ودقة التعبير، والتزام المصطلح العلمي، والإشارة إلى ما يتفرع عن التعبير من معانٍ يكتفى بحضورها في الذهن عن ذكرها... بذلك عظم صيت الكتاب، وطار ذكرُه وأقبل الناس عليه إذ وجدوا فيه الضالة المنشودة من التفسير العلمي على الطريقة التحليلية اللفظية، التي عظمت بها من قبل شهرة تفسير الكشاف»[4].

ثم تتابعت التفاسير مثل تفسير ابن عرفة وتفسير أبي السعود والشهاب الألوسي الذي أخرج كتابه التفسير المشهور «روح المعاني» الذي جمع بين علم التصوف والذوق وتحليل المعاني ودلالة التركيب.

---

(1) محمد الفاضل بن عاشور، التفسير ورجاله، ص (81).

(2) المصدر نفسه، ص (87).

(3) المصدر نفسه، ص (107).

(4) المصدر نفسه، ص (113).

ترجمة القرآن الكريم

• المعنى الاصطلاحي للترجمة:

ساق الزرقاني تعريفاً بسيطاً صحيحاً للترجمة:

«هي التعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده»[1] والتعريف واضح غير أن قوله: «مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده» يحتاج إلى المزيد من الإيضاح.

أي: أن الترجمة الصحيحة يجب أن تنقل الكلام نقلاً إلى لغةٍ أخرى مغايرة مستوفيةً جميع المعاني والمقاصد المحتملة، لأن إهمال أي مقصد أو معنى محتمل يعتبر تحجيم للنص الأصلي المنقول، وتنقيص من سعة دلالته... بخلاف التفسير: فلا يشترط فيه الوفاء بكل معاني الأصل المُفسَّر ومقاصده، بل يكفي فيه البيان ولو من وجه»[2].

• أنواع الترجمة:

تقسم الترجمة إلى معنيين: حرفية، وتفسيرية:

فالترجمة الحرفية: هي التي تراعى فيها محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه. فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه. وبعضهم يسمي هذه الترجمة ترجمة لفظية. وبعضهم يسميها: مساوية»[3].

والترجمة التفسيرية هي التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة أي: محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه، بل المهم فيها حسن تصوير المعاني والأغراض كاملة... وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعاني والأغراض جعلها تشبه التفسير وما هي بتفسير»[4].

أما الترجمة التفسيرية: فإنها تعتمد المعنى الذي يدل عليه تركيب الأصل فيفهمه، ثم يصبُّه بواديه من اللغة الأخرى»[5].

ولا بأس من ضرب الأمثلة على كلا النوعين من الترجمة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[6]

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 125).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه. (125، 126).
(5) المصدر نفسه، (126).
(6) سورة الإسراء، الآية: (29).

فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية أتيت بكلام من لغة الترجمة، يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه بأن تأتي بأداة نهي أولاً، يليها الفعل المنهي عنه، متصلاً بمفعوله، ومضمراً فيه فاعله، وهكذا. ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج أسلوب غير معروف ولا مألوف في تفهيم المترجَم لهم ما يرمي إليه الأصل من النهي عن التقتير والتبذير. بل قد يستنكر المترجَم لهم هذا الوضع الذي صيغ به هذا النهي ويقولون: ما باله ينهىٰ عن ربط اليد بالعنق. وعن مدها غاية المد؟! وقد يلصقون هذا العيب بالأصل ظلماً، وما العيب إلا فيما يزعمونَهُ ترجمة للقرآن من هذا النوع»[1].

«أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية فإنك بعد أن تفهم المراد، وهو النهي عن التقتير والتبذير في أبشع صورة منفّرة منها، تعمد إلى هذه الترجمة فتأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد، في أسلوب يترك في نفس المترجَم لهم أكبرَ الأثر في استبشاع التقتير والتبذير. ولا عليك من عدم رعاية الأصل في نظمه وترتيبه اللفظي..»[2].

• شروط لا بد من توافرها في الترجمتين الحرفية والتفسيرية:

كي ننتج ترجمة تفسيرية أو حرفية لا بد من الشروط التالية:

أولها: معرفة المترجِم لأوضاع اللغتين لغة الأصل، ولغة الترجمة.

ثانيها: معرفة لأساليبهما وخصائصهما.

ثالثها: وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن.

رابعها: أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل، بحيث يمكن أن يُستغنى عنه، وأن تحل محله، كأنه لا أصل هناك ولا فرع»[3].

• في الترجمة الحرفية بعد الشروط السابقة لا بد من أمرين:

أحدهما: وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات التي تألّفَ منها الأصل حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل، كما هو ملحوظ في معنى الترجمة الحرفية.

ثانيهما: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة، والربط التي تربط المفردات لتأليف التراكيب. سواء في هذا التشابه ذوات الروابط وأمكنتها. وإنما اشترطنا هذا التشابه، لأن

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 126).

(2) المصدر نفسه، (2/ 126، 127).

(3) المصدر نفسه، (2/ 127).

محاكاة هذه الترجمة لأصلها في ترتيبه تقتضيه»[1].

ويرى الزرقاني: أن الترجمة الحرفية مستحيلة لعدم تساوي مفردات اللغة الأصل مع اللغة المنقول إليها. وقال بعضهم هي ممكنة في بعض الكلام دون بعض.

أما الترجمة التفسيرية: فممكنة «لأن المعاني المرادة من لغة الأصل واضحة فيها غالباً ولهذا اعتمدوا عليها في الترجمات الزمنية وفضّلها المترجمون والمشتغلون بالترجمات على الترجمة الحرفية[2].

• التفسير والترجمة:

لقد اختلفت الآراء حول فائدة ترجمة المعاني القرآنية، كما أن الخلاف كان شديداً حول جواز وحرمة ترجمة المعاني القرآنية... أي ترجمة التفاسير.

وكي يكون الأمر واضحاً لا بد من بيان معنى الترجمة لغةً واصطلاحاً.

• معنى الترجمة ودلالتها:

دلالة كلمة الترجمة في اللغة العربية تنحصر في أربعة معانٍ:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغهُ، ومنه قول الشاعر:

إنَّ الثمانينَ - وبُلِّغْتَها - قد أَحْوجَتْ سمعي إلى تُرْجُمانْ

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التي جاء بها. ومنه ما قيل في ابن عباس: أنّه ترجمان القرآن.

ولعل الزمخشري في كتابه أساس البلاغة يقصد هذا المعنى إذ يقول: «كل ما ترجم عن حال الشيء فهو تفسير له»[3].

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته: وجاء في لسان العرب وفي القاموس أن الترجمان هو المفسر للكلام، وقال شارح القاموس ما نصه: «وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسّر كلامه بلسان آخر»[4].

---

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 127)..

(2) المصدر نفسه.

(3) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة «فسر». ص (473)، ط، دار صادر، (1992م).

(4) ابن منظور، اللسان، مادة: رجم.

رابعها: نقل الكلام من لغةٍ إلى أخرى: التُّرجمان بالضم والفتح، هو الذي يترجم الكلام أي ينقله والجمع تراجم»[1].

• التأويل:

أصله من أوّل الكلام تأويلاً وتأوّلَهُ: دبَّرَه وقَدّرَه، وفسّرَهُ»[2].

فإذا كان التفسير هو الكشف والبيان، فإن التأويل هو:

«عبارة عن احتمال يقصدُه دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر»[3] ويوضح الغزالي دور التأويل في توجيه النص بقوله عن التأويل إنه «يشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز، وكذلك تخصيص العموم بردِّ اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز...»[4].

ويضرب الغزالي بعض الأمثلة:

مسألة تأويل آية مصارف الزكاة: قال قومٌ: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[5]. الآية نص في التشريك فالصرف إلى واحد إبطال له. وليس كذلك عندنا ـ [أي عند الشافعية] بل هو عطف على قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟﴾[6] ـ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾. يعني أن طمعهم في الزكاة مع خلوهم عن شرط الاستحقاق باطل، ثم عدَّد شروط الاستحقاق ليبين مصرف الزكاة، ومن يجوز صرف الزكاة إليه، فهذا محتمل، فإن منعه فللقصور في دليل التأويل لا لانتفاء الاحتمال»[7].

ويمكن القول: إن التأويل إرجاع للنص وتعبير له، يقول الشافعي في التأويل: إنه إرجاع لفظ النص وتعبيره إلى واحد من تلك المعاني المحتملة في النص ولا يكون ذلك إلا بدليل»[8].

---

(1) ابن منظور، اللسان، مادة رجم.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، «أول».
(3) الغزالي، المستصفى، 1/ 245. دار إحياء التراث العربي، ص (1) (1997م).
(4) المصدر نفسه.
(5) سورة التوبة، الآية: (60).
(6) سورة التوبة، الآيتان: (58، 59).
(7) الغزالي، المستصفى، (1/ 249).
(8) الشافعي، الرسالة.

• الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير كما أسلفنا سابقاً بيان وتوضيح وكشف... وهو: بيان وضع اللفظ إمّا حقيقةً أو مجازاً كتفسير الصراط بالطريق.

أما التأويل: فهو «إخبار عن حقيقة المراد» والتفسير إخبار عن دليل المراد؛ لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[1] تفسير: أنه من الرصد. يُقال رصدته. وتأويلُه: التحذير من التهاون بأمر الله سبحانه، والمشهور عند المتأخرين: أن التفسير هو: بيان المعاني التي تستفاد بالعبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة»[2].

• رأي الشاطبي في ترجمة القرآن:

قال الشاطبي: «للغة العرب، من حيث هي ألفاظ دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية، والثاني من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة، دالّة على معانٍ خادمة وهي الدلالة التابعة، فالجهة الأولى هي التي تشترك فيها الألسنة، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا تختص بأمة دون أخرى. فإنه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلاً كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام، تأتي له ما أراد من غير كلفة، ومن هذه الجهة يمكن في لسان الإخبار عن أقوال الأولين من ليسوا من أهل اللغة العربية، وحكاية كلامهم، ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها وهذا لا إشكال فيه.

وأما الجهة الثانية: فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كلّ خبر يقتضي في هذه الحالة أموراً خادمة لذلك الإخبار، بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به، ونفس الإخبار في الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك».

ثم قال الشاطبي:

«بهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن، لأنه يتأتى مساق القصة في بعض السور على وجه، وفي بعضها على وجه آخر، وفي ثالثة على وجه ثالث وهكذا تقرر فيه من الإخبار، ولا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في

---

(1) سورة الفجر، الآية: (14).

(2) خالد عبد الرحمٰن العك، أصول التفسير وقواعده. ص (520)، ط (3)، (1994م).

بعض، ونصّ عليه في بعض. وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت[1] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[2].

... ثم قال الشاطبي:

«وإذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير ـ أي الدلالة التابعة ـ أن يترجم كلاماً من الكلام العربي بكلام العجم، فضلاً عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسانٍ غير عربي، إلّا مع فرض استواء اللسانية في استعمال ما تقدم تمثيلُه ونحوه. فإذا ثبت ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب، أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر، وإثبات مثل هذا بوجه بيِّن عسير، وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة في القرآن يعني على هذا الوجه الثاني.

فأما على الوجه الأول فهو ممكن، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معناه، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي»[3].

ومن هذا يظهر أن كلام الشاطبي المالكي له وزنه الفقهي والعلمي يقضي بجواز ترجمة القرآن مع الدليل والبرهان... إذا كان كلام الشاطبي واضح البيان في إجازة نقل المعاني الأصلية للقرآن دون التابعة، وعلى هذا فإن إطلاق الشاطبي لفظ «ترجمة القرآن» على ما أدى تلك المعاني الأصلية وحدها، إطلاق لغوي محض لا نخالف فيه، بل هو أمر يشجع إليه.

• موقف الشاطبي من الترجمة الحرفية:

لا يوافق الشاطبي على الترجمة الحرفية للقرآن ولا في النصوص الأدبية وله في ذلك عدة حجج أكتفي بذكر واحدة كونها كافية في هذا المجال:

«إن القرآن أنزل بلسان العرب فطَلَبُ فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة... ثم قال: «فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهمُه، ولا سبيل إلى تفهمه من غير هذه الجهة». وذلك برهان يدل على أن ترجمة القرآن في نظره، لا يمكن أن تفي بهداياته ومقاصده. وأن طالب فهمه لا طريق له إلا أن ينتقل هو إلى القرآن ولغته فيَدْرسُه على ضوء على ما تقرر من قواعد هذه اللغة وأساليبها، ولا سبيل إلى هذه الدراسة طبعاً إلا بحذف

(1) الشاطبي، الموافقات، (2/ 44، 45).

(2) سورة مريم، الآية: (64).

(3) الشاطبي، الموافقات، (2/ 44، 45)، بشيء من التصرف.

هذه اللغة وعلومها»[1].

من ذلك يظهر جواز الترجمة التفسيرية للمعاني لأن التفاسير لا علاقة لها بالإعجاز إنما بيان للمقاصد والمعاني، وتمكّن من نشر المعارف والعلوم القرآنية في الأمم الأخرى، مع التأكيد أن ترجمة المعاني ليست قرآناً وليس لها خصائص القرآن، وليست هي ترجمة كل المعاني التي فهمها القرآن ـ وقد أجاز عدد ضخم من علماء الأزهر في العصر الحديث ترجمة المعاني القرآنية إلى لغات أخرى بشروط»[2].

❀ ❀ ❀

(1) الزرقاني، مناهل العرفان، (2/ 61 ـ 64). بيروت، إحياء التراث، (1945).

(2) أسماء العلماء الذين أجازوا ترجمة معاني القرآن إلى لغات أخرى مبثوثة في كتاب «كيف نفهم القرآن» لعلي دحروج وكامل موسى، ص (147)، ط (1992م).

obeikandl.com